A L I B A D R

رواية
NOVEL

علي بدر

شتاء العائلة

الطبعة الثانية

SCANNED BY
JAMAL HATMAL



شتاء
العائلة

شتاء العائلة / رواية عربيّة
علي بدر / مؤلّف من العراق
الطبعة الثانية ، 2007
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف : **عبد الأمير علوان / العراق**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .
ISBN 978-9953-36-988-7

روايــة
NOVEL

علي بدر

شتاء العائلة

الطبعة الثانية



لقد ذاب في غياب كثيف
الصلصال الأحمر امتص النوع الأبيض
وهبة الحياة انتقلت إلى الأزهار
فجرٌ جديدٌ جاء من شتاء العائلة

بول فاليري


حضور الغائب

قبل عدة أيام ، زرت منزلنا القديم ، منزلنا الذي ولدت فيه أشبه بجنة من زهور القرنفل وهو يطل على النهر ، وعلى مقربة من حدائقه السلطانية الكبيرة كانت هنالك مفازة من الآس والسدر ، حيث كان موج النهر يلفّ بلسانه خاصرة البساتين ؛ لقد دخلت صالته الرطبة الباردة بهدوء ، رميت حقائبي الجلدية السود على بلاطه المرمري الصلب وسرت قرب زهريات سيراميكية ثلاث موضوعة في الزاوية ، توقفت ، خلعت معطفي الأسود ورميته على الأريكة الخشبية ، ثم صعدت السلم المرمري إلى الدور الثاني . كان ضوء المصباح المتوهج ينعكس بقوة على البلاط الشطرنجي الذي يظهر في المساحات التي لا يغطيها السجاد الثقيل ، فتحت باب الحجرة الكبيرة ودخلت ، كانت خزانة الصور موضوعة قرب السرير تماماً ، خشبها الساج المطعم بالعاج وقد علاه الغبار جذبني بقوة ، رائحة الذكريات الشبيهة برائحة فاكهة مخمرة جذبتني ، وهناك ماض موحش ينبعث من كل مكان .

فتحت خزانة العائلة بيدي فصر بابها الثقيل بصورة ناعمة ، جلست على الكرسي المطل على النافذة ، وأخذت أقلب صوراً قديمة ،

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

دفاتر ذكريات ، عقوداً رسمية ، فاتورات ، وفي تلك اللحظة سقطت صورة من يدي على الأرض ، كانت صورة باللونين الأسود والأبيض لعمتي وهي شابة ، فنظرت إليها ، نظرت إلى عينيها القاتمتين المسحوبتين برقة ، أنفها المرتفع قليلاً ، استدارة وجهها الناعمة ، وملابسها الجميلة المحتشمة . وضعتها برفق على المنضدة ، وأخذت أقلب دفتر ذكرياتها ، فتذكرت حفلة جدي ليلة رأس السنة ، كنا في حديقة الطاووس المنسقة تنسيقاً هندسياً رائعاً آنذاك ، وكان شعاع القمر الفضي ينهمر على قبعات النساء الحريرية ، وعلى طوب الشرفات الشائهة برقة ، بينما كانت الكلاب اليابانية البيض تتحلق حول أقدامنا تحيل فضاء السهرة إلى شيء شبيه بالأحلام .

فجأة تذكرت المنزل المنيف المشيد في الضاحية الراقية المطلة على ضفة النهر ، حين اعتمرت النساء قبعات نحاسية وارتدى الرجال جلوداً مكعبة ليلة رأس السنة . كنت سهرت هناك في بيت جدي محلقاً على الشرفات العالية ، حتى شهدت شروق الشمس على القنصليات الأجنبية المشيدة مثل منازل مخروطية قبالة المتنزه الملكي ، وكان الدغل يتربص بالأسيجة الواطئة لشجر الزعرور في الحدائق الغابيّة بأزهارها الصباحية المخضلة التي تمتد على ضفة النهر المرتجف أول الشمس .

**

لم أزر عمتي في المنزل الذي ولدتُ فيه إلا في تشرين الماضي ، وحين اجتزت السياج من بوابة المنزل الحديدية الضخمة المنحوتة قبالتُها التماثيل الرخامية ، سرت في ممر خاص ، كان هناك صفّا أزهار

شتوية وآس ، ثم باب المنزل المشرّع الذي يقود إلى ممر طويل أصفر مثل زهرة حلق السبع .

الستائر المخملية مرسومةٌ باليد ، الصحون كذلك ، والأبواب كانت مضلعة ، وفي خوان المكتبة ثلاث ريشات قرمزية وزهرية صغيرة . وفي الصحون الفضية بضع ليمونات صفر كنّا ننظر نحوها وهي كثيرة التبدل ، بينما كان الجدار قبالتي يحفزّني إلى ذوقه الرفيع العالي وهو يعكس الحياة القدسية التي تمور بها أروقة المنزل .

**

كان جدي يسمي الدب الأكبر في قبة السماء إله الهندسة ، وهو يهز بوجهه المرسوم بخطوط قاتمة ويائسة ، كنا نجلس في الحدائق الجليلة كل مساء حلقة ، وهو يتحدث عن والده الذي هرب إلى مصر على ظهر حمار هزيل ، لقد حدثتني أمي التي لم تكن تحب أهل أبي وفي كلامها طابع قاس :-

- (الثور ، الحمار ، والكلب هم تراث العائلة آنذاك) .

عمتي تقول :

- (الحيوانات وحدها التي تربط الحياة بالزمن ، لأنها تمثل الحركة) .

لم تكن بغداد ذلك الزمان غير قوافل الحمير تحل محلها الشاحنات والمركبات الحديثة ، بينما أصبحت الإسطبلات العظيمة الهياكل أحواض الماء مزنرة بتماثيل الخيول المتوثبة التي تذكرهم بتاريخ الإمبراطوريات القديمة والأيام الغابرة . بغداد التي طبعت بطابعها بلاد فارس القريبة تلمع مثل سمك تحت الشمس ، مآذنها

وقبب مساجدها وهي تغطي صدور المدن .

كان أبي يقول :

- (بغداد أشبه بدمشق منها إلى القاهرة) .

بينما يطوف تجار الأثريات وبأيديهم حقائب النقود التي تحمل النقوش الآشورية السود بحثاً عن شيء يصل الحاضر بالماضي .

**

قبالة الباب بمواجهتي ، كان يقف خادمُ عمتي (سليمان) بطاقيته السمرقندية المنقوشة بخيوط ملونة ، وعيناه تلمعان ببريق الشيخوخة اللاصف ، ويداه ترتعشان وهو يصافحني ، كان قد قتل أرمنيا في أذربيجان قبل أربعين عاماً وهرب إلى بغداد ليخدم جدي الذي يقول في ساعات غضبه :

(هذا العلج لا يحب العرب) ويجلده بالسوط الأسود وهو يركع عند قدميه . كانت جدتي تقول إنه يحبنا لأن ولاءنا ما زال حتى الآن للزمن القديم ، وحين ماتت وصيفتها عبدة بكت جدتي وقالت :

(لقد ماتت عبدة وتركتْ لنا هذا الدجال) .

كانت عبدة خيالية متسلطة ، إلا أنها لم تكن يوماً كذابة ؛ لقد كانت تحافظ على نوع من الغطرسة ، لقد بهرتني في الماضي - الحركات المتميعة لا تصنّف الناس جميعاً ، وحينما سألت جدتي من أين تجيء غطرسة عبدة وهي خادمة ، قالت (لأنها تحفظ الدرس جيداً ، أقصد إنها تعرف وبشكل ممتاز مثلاً عائلياً قديماً (كلب الملك ملك الكلاب) وحين سجّيت عبدة على فراش الموت ، كنا الثلاثة بالقرب منها ، جدتي ، وصديقي أسعد ، وأنا ، . .

طلبتْ مرآتها الصغيرة لتتطلع إلى وجهها وهي تحتضر ، ثم أدارت المرآة باستقامة إلى الخوان الذي يظلل رأسها ، لتعكس صورة الحذاء المطرز بحجر الفيروز الذي أهدته لها أخت رئيس الوزراء يوم كانت وصيفتها . . وانفجرت باكيةً . . لم أنس هذا الجمال الشائخ الذي كثيراً ما قيل عنه إنه يهودي ، إلا أن عمتي وحدها التي تصرّ أنه شركسي من بلاد العجائب ، وعجبتُ كيف لم أر هذا الجمال مرّةً أخرى ولا حتى في الأحلام .

**

دخلنا - أنا وزوجتي - بهدوء الصالة الدائرية التي كانت تضوع منها رائحة السكاكر الموضوعة في الآنية الفضية . كانت أرائك السنديان المنجّدة بشكل فاخر مفروشة بالطنافس الحريرية الملونة ، وهرّتها تتكوّم على أحد المقاعد المنجّدة في الديوان نصف الدائري وهو يحيط بمدخنة جميلة مطعمة بالموزائيك . كانت عمتي تجلس هادئة صامتة قبالة النافذة العريضة المرخاة ستائرها المخملية الثقيلة ، تتطلّع إلى أغصان الأشجار الرطبة المرهفة وهي تلامس زجاج النافذة الصقيل ، وبالقرب منها على طاولة مطعمة بالأصداف الصغيرة ، كانت هنالك روزنامة بلاستيكية ، ومحزّ زجاج ، ومصقلة لتمليس الورق ، وفي الجانب الآخر كان عبق نبات الأذريون يفوح من الزهرية السوداء المبقعة بألوان داكنة .

أخذت تحك ربلة ساقها المخروطية بصولجان مغطى نصفه بالجلد ونصفه بالريش بنعومة ، وفي الزاوية القصية كان هنالك قلقباسٌ محنطٌ موضوعٌ بأناقة على شيت من قماش الكاليكو المنقّط . جلسنا

بهدوء قبالتها ، أنا أولاً ، وبعد ذلك زوجتي ، على كراسيّ مقشّشةٍ من الخيزران ، وأخذنا نتطلع من زجاج النافذة إلى أضرحة العائلة البيض وهي تستلقي في الحدائق السلطانية تحت الأجمات الضخمة ، مثل نساء مستحمات .

نظرتْ إليّ عمتي نظرة غائمة ، وطالعني صوتها المغمور بالحزن :

(حسن بعد كل هذه السنوات التي عشتُها أجد نفسي تعيسة) .

قلت لها :

(سيدتي . .) .

فأجابتني بصوتها البعيد القادم من مكان قصي :

- (ألا تناديني بعمة) .

حنوها الساحر ، قربها من الماضي وحنانها الذي ولده موت الآخرين الذين قربها ، هو الذي طبعها بهذا الطابع الفريد الذي لا يتغير . كانت عمتي منغمسة كلياً في حزنها وهنالك ماضٍ موحش يطبع كل ما تقول ، للذكرى كانت تتحدث ولم تتحدث لتمدني بالمعلومات أو تشرح حزنها ، كانت تتطلع إلى الفستان الأحمر المفضض المرمي على الأريكة مثل قطعة لحم حمراء على مساحة غامقة . استغربت :

- (هل كان هذا فستانُها) .

انغمرتْ عمتي في حزنها العصيّ على الوصف أو التفسير ، كان هنالك شيء ملغز وحميمي في صوتها المتهدّج الذي يأتيني بشكل أليف من مكان بعيد ؛ لقد مسحت الغبار الذي علقه ، ثم تملّكها صمتٌ ثقيلٌ . لم أكن أميز في الصالة نصف المضاءة بوضوح ،

فأحسست أن شيئاً سرياً غامضاً مسني ، والآثار السحرية تطرد عني نزعة الفضول .

- (من كثرة التأمل في هذه المساحة ، شعرنا بأن كل شيء يعادينا ، كل شيء هنا مجهول وعدائي . . لقد عشنا حياتنا ولم نعرف الكراهية . . ولكن حين أحبته أخذت تكرهني؟) .

كان الانفعال يأخذني في المكان المملوء بالجلد الأحمر واليوميّات التي علاها الغبار ، كان الانفعال يأخذني بعيداً إلى معرفة تفاصيل ذلك اليوم الذي دفنت عمتي أسرارها فيه ، كنت أريد معرفة مشاعر عمتي بالضبط نحوه ، غير أنها كانت تنظر نحوي بغموض وتتحدث عن أيام مروعة تستيقظ فيها منتصف الليل لتضرب على ساقيها وتقول : (لم يكن ذلك حقيقة . . لا كل ذلك كان حلما) .

**

كانت عمتي تظن بأن الحب قائم في شيء آخر ، أقصد في حياة أخرى ، وليس بعد واقعة الغرام من توبةٍ أو ندم ، لم يكنْ الحبُ يوماً عقلانياً أبدا ، ومن حظه أن له حسنات كثيرة ، يجب أن لا يخلط مع التطفل أو الفضول ، إنه مرضٌ له حسنات كثيرة ، لا يمكن لأحدٍ تفسيره على الإطلاق ، وهذه الطريقة الوحيدة التي تكتسب فيها الأشياء معناها ، إلا أنه يكتسب معناه من الحياة مثلما يكتسب الحديد بعد مرور الزمان الصدأ .

عمتي تقول :

(نتوهم أننا اكتشفناه في الألبومات وعلب التبغ ، وما تبقى ليدلّ على غياب الآخر ، ولكن هذا الأمر سخيف بالنسبة لي ، لأننا

نكتشفه في الذكرى الخالصة تماماً ، أبداً من غير أشياء أو أدوات ، ثمة ذكريات نتركها لنعود إليها لاحقاً ، لكنها لا تنتهي ، لا تنتهي أبداً ، كل ذكرى تفترض لغتها الخاصة) وكما لو كانت العمة تجاوب صدى ذكرياتي ، نظرت نحوي ، ومن ثم حوّلت نظراتها إلى الرقعة الحمراء لبتلات الأكرسون وأشارت بيدها البيضاء المختصرة بالخاتم الألمازي الصغير :

- (انظر . . كانت تحبها كثيراً . . هذه البقعة الحمراء . . وبعد زوال الأشخاص نكتشف أهمية الإشارة . وهكذا كان مصباح علاء الدين يذكرني بعالمها الصغير) .

ثم قالت وفي حلقها غصة :

- (أنا تعيسة) ، قلت لها : (ألا أستطيع أن أفعل لك شيئاً) .

- (لا . . لا تهتم بي كثيراً ، لقد عشت . وهذا كل ما في الأمر . ولكن بعد تجربة الحب ، الحب القاسي ، تجد أنك لم تعش الحياة كما ينبغي . وفي الوقت ذاته تشعر أنك عشتها بامتلاء لا يناظره امتلاء . إنه وهم لا غير ، مجرد شعور . . أحياناً وأنا أصغي لصوت طائر المقو ، أتذكر كل شيء ، أستعيد كل التفاصيل الحميمة بحسرة كبيرة . أتخيل أنني أحيا الحياة مرة أخرى وأغير التفاصيل بصورة أفضل ، لأجد نفسي معها . . معها هي . . أو معه هو . . لأن غيابهما هو الذي أورثني كل هذه التعاسة) .

وانغمست في صمتها مرة أخرى ، ثم أخذت تتطلع بعينيها السوداوين من النافذة .

- (حين تحب ، كأنك تريد سلماً أو أرجوحة لتطير ، كأنك تريد

أن تتجمد في الفراغ وأنت تقفز ، ثمة فكر يجعلك تنطلق ، ولكن بعد غياب الآخر يتحول الحب إلى صمت ، صمت قاس ومعذب ، وأنا أتأمل في ظلي أدرك جيداً أن كل ما كان لا بد أن يكون) .

**

كان خلف النوافذ العريضة المبرنقة بالبرونز ظل الليمون القاتم مختلطاً بالركائز الخشبية الطويلة ، وكل تلك الفوضى المتكونة من الأكداس والروزنامات التي بقربها تتجاوب مع عواطفها الآتية من عالم بعيد ، ومن موت حاد ، كانت تنتمي إلى عالم الحب الذي يتلوى مثل أفعى في الظل . كنت أصغي بسخاء إلى صوتها المتموج المتشابك مع الزقزقات المتصالبة التي تملأ فضاء الصالة ، وقد أحدثها صفان من عصافير الدوري وطائر المقو القادمة من بحر عمان وهي تمتزج في الظل القاتم لعالم يخلق من جديد .

فوق هذه الكومة الراعشة ، قدح ليمون يطفو على سطحه مكعب ثلج ، وعلى الخوان الكبير الذي يزين الصالة : تحفيات قديمة ، ومنقشة خشبية ، وطسوت معدنية ، وقليل من قصوان الحقول ، وعلى الحاجز المصنوع من العاج الثمين كان ثمة شمعدان كبير من الخشب الراتينجي ، تستسلم شعلاته التسع لانطفائها الهادىء .

كانت تتحدث وهي تبسم لي بتصفيفة شعرها الشرقية المنسدلة أعلى عينيها الجميلتين ، أحنت نظرتها إلى الأرض وهي تتطلع بين قدميها ، ثم رفعت رأسها نحوي ، ومن النافذة العريضة كنت أتطلع إلى أكداس من الأغصان الخضر المحملة بالفاكهة الناعمة الملمس ، وهي تحاول أن تتحرر من المكان ، وكل شيء كان ينتمي إلى الخيال لا

إلى الغرابة .

- (الحب) قالتها بصوت متهدج النبرة (جنازة الحب هناك) .

وأشارت إلى ضريح مرمري منعزل عن قبور عائلتي الصامتة . نظرت إليها بقلب متألم حزين ، لا أحد يروي سوى هذه الصور الفوتوغرافية المتأملة من بعيد . نهضت عمتي من مكانها ، ونهضنا معها ، أخذت تشير إلى الصور المعلقة على الحائط وهي تشرح لنا . كانت صورتي محنطة بإطار برونزي على الجدار الشاهق ، وخلفي المناظر الخامدة المتروكة في مدنيات مجهولة ، كنا نتطلع إلى المدن الصامتة ، والأشياء تتوالد فيها بشكل أخاذ ، الأشياء المتشابهة لا تخلق جديداً إلا في هذه الفوضى التي تعبر عن مجهول . الممرات الملساء متناغمة كما في أعماق الحب ، الهررة الصغيرة والأزهار الشفافة تتحرر من تشابكها .

توقفت زوجتي لتشير إلى البناء الشاهق ذي الجدران الخامدة ، وصورتي صغيراً قرب عمتي ، فأخذت أتفحص الصورة ، كما لو كنت أتفحص ظلي في العتمة . أخذنا نتجول في ردهات المنزل وصالاته الواسعة ، كنت أتذكر عالمي الصغير وكأنه عالم ينبثق من جسد يتهاوى ، وحين أصبحنا في الحديقة في ظل شجرة الدراق المعمرة ، تذكرت جب الزنبق قرب الحواجز المعدنية التي ينمو تحتها نبات الفطر ذو الآذان المنحنية ، وأشجار الجهنمية تتسلق بأغصانها السلطانية شرفات الأدوار العليا . لقد كان التواصل خفياً ، وفي كل مكان كانت تضوع رائحة الحب ، نفاذة عميقة .

(طالما تتوقف الفتاة في نزهاتها العصرية على الشاطىء ، لتكسر غصناً أو تلم حصى) .

كنت رفعت من الأرض حصاة ، تأملتها وقد غادرت شكلها الهندسي . كانت عمتي تتحدث ونحن ننظر في دهشة مستمرة ، الفتاة الصغيرة تهيمن على حياة الحديقة ، كما تهيمن الآلهة على ما حولها من أشكال مسلوخة من الحياة . قلت لها (إنها هناك) فالتفتت زوجتي إلى الضريح . نظرت إليها عمتي وقالت :

- (نعم ، الأزهار والجمجمة في مكان واحد) .

لقد كان الضريح يمتزج بشيء حي خارج هذا الإطار الإسمنتي بهيكله المرمري وبرشاماته العاجية ، لتتحول كل هذه الأشياء الجامدة المحيطة به إلى حياة ، وكأنها عضلات مضطربة نابضة ، وحين أصبحنا قبالة مرمره الأبيض تماماً ، أدركت أن الأشياء الصامتة التي لا تتكلم أحياناً تصرخ ، الأضرحة الصغيرة تكاد لا تميز عن سائر الأضرحة الباقية ، ولكن اللغة التي يحملها هذا الضريح هي لغة وحدته ، وعزلته ، وحتمية صراعه من أجل أن يبقى في المكان ذاته لأنه لا يشبه سواه .

**

أخذنا نتخطى بحنان كثير في المماشي القرميدية الملونة بين صفوف الآس المقصوص ومواكب القرنفل ، فنثت السماء الملبدة بالغيوم نثاً خفيفاً ، انتشر مثل لآلىء بلورية صغيرة على شعرنا وملابسنا فغمرتنا بشعور مفاجىء ، أعمق من شعور ديني هبط علينا في تلك اللحظة .

فأدركت آنئذ وأنا أنقل عيني بين المرمرة الصفراء اللاصفة وبين جذع شجرة الدراق المعمرة ، بأننا قرب جب الزنبق ، استندت عمتي

إلى جذعها الضخم ، وهي تلمس بأصابعها الطرية نسيج نباتها الدبق بين الليف المشقق واللحاء ، كان رأسها الأشيب الفضي منحنياً قليلاً ، وهي تتأمل حشرة صفراء تتسلق بهدوء حذاءها المصنوع من جلد الغزال . عبرنا المماشي المتشابكة ، وأوراق الحامض تتساقط على ثوبها الفضفاض ثم تنزلق إلى نهايته بصمت عجيب ، وهناك كنا نتطلع عبر سياج الزعرور إلى الضياع الراقية الكائنة بصمت في الجوار ، تظللها الأشجار العجيبة التي تضربها في أيام تشرين الوحشية الداكنة قبضات الزوابع ، وكأن أغصانها السلطانية تلامس برفق حافات الشرفات النحيفة ودرفاتها العالية وأفاريزها المتموجة ، والزمان يمر .

في ذلك المكان تذكرت المقاهي التي تعبق برائحة الهيل ، بينما تمتد شوارع بغداد الإسفلتية التي تعبرها ليلاً سيارات الحكومة إلى ضفة النهر المحفوفة بالسرو . وحين دخلنا مرة أخرى الصالة الدافئة المعطرة ، أخذ المطر يضرب زجاج النوافذ بقوة ، فدلفنا إلى مقصورة مزينة في الدور العلوي قبالة صالة الحفلات ، بعد أن ارتقينا درجات السلم المرمرية الملمعة جيداً بالشامبو والصابون ، حين كنت طفلاً كل خميس أرقب الرجال من أقربائي بثياب الحفلات يرقصون ، وحين يسكرون تضع النساء على رؤوسهم صواني الكؤوس ويدورون حلقة في الصالة .

**

واجهتنا على الجدار الواطىء السقف صورة صغيرة ببراويز لجمل القرعوس البني ذي السنامين ، وبين رفوف المكتبة الفخمة كتب سميكة الأغلفة ، قربها قلموت دون تبغ ، وعلى الخوان المرصع

بالأصداف الصفر زجاجة نبيذ مقطر من لب التفاح يعود تاريخها إلى عام ١٩٥٧ ، وقميصول مسرول بلا كمين ، وقلنسوة كأسانية ، وكانت الكتب منتشرة بلا اعتناء على الأرائك الوثيرة المفروشة بالطنافس الحريرية . أخذت زوجتي تقلب الكتب وهي تجلس على الكرسي الهزاز قبالة نار الوجاق المتقطعة اللهب . وأنا أقلب عيني في محتويات الغرفة : بذور كماسيات من الفصيلة الزنبقية ، وعارضة محدودبة ، وعلبة من شاي الكمبريكي القديم ، وقد فرشت المقصورة بسجادة من وبر الإبل العالية الشعر .

كانت الساعة الدقاقة على العمود المرمري الهابط من السقف تدق ، وصوت صداها المعدني يتجاوب مع الساعات الموجودة في الحجر المفتوحة في أدوار المنزل .

- (أكثر كتبك روايات) . قالت زوجتي وهي تقلب ببطء صفحات الكتاب الذي بيدها ، كانت الببغاوات تثقل الشجر الباسق ، ومن النافذة الكبيرة تدخل ضجة السيارات .

- (الحياة عذاب طويل) . قالت عمتي وهي تمسك بيدها الناعمة تفاحة طازجة ناعمة الملمس . قالت ، وهي تبدي ارتيابها ، وفي عينيها النظرة الغائمة ذاتها مذ تبعت بيأس نداء تيارها الداخلي البعيد ، مذ لبت نداء الأنا العميق الكامن في داخل كل واحد منا ، كانت تتحدث وهي تنظر إلى أكداس الكتب الموضوعة في المكتبة الخشبية التي قبالتها ، والكتب المنتشرة على الأرائك دون اعتناء ، روايات جين أوستن . . باربره كارتلاند . . جنباً إلى جنب ، وكأنها شعرت في سني عمرها الأخيرة بتيار الحياة يتباطأ ويتصلب ، فغرقت

في تيار العدم ، القراءة انتصار مؤقت ولا بد أن يدحرنا الزمان بالموت ، بتيار الزوال الذي يجرف كل واحد منا .

**

- (لقد تشبثت به ، لم أكن أريد حرمانها منه ، ولإغفالي للتغير المريع الذي يجريه الزمان في داخلنا ، كنت تمسكت به كتمسكي بمفاجأة اليوم التي تناقض واقع الأمس والغد) .

صمتت عمتي قليلاً ، كانت أنثى الطوقان تتحرك خلف القضبان المذهبة في الردهة الحولية العليا ، نهضت من مكاني وتحركت بهدوء لأتناول معطفي المرمي على الأريكة ، كانت قد استبدت بي رغبة كبيرة للمسير . هبطت درجات السلم المرمرية وتركتها بصوتها الشجي تتحدث مع زوجتي ، فأصبحت في الصالة الكبيرة قبالة الساعة الكبيرة الموضوعة على الجدار بمواجهتي ، كانت عقارب الساعة تتحرك حركتها غير المرئية على المينا المرسومة بالختم الملكي ، وكأنها رسم ظل الشمس على الأرض ، وكأنها نوع من الانطباق والوحدة بين السماء والأرض ، وشعوري في تلك اللحظة وأنا أنظر نحوها بالغ الحزن . . إن الحياة نزاع بطيء مع عقارب الساعة ، صراع بطيء مع الموت القائم فينا دون انقطاع ، والحب وحده الذي يدمر سلطتها ويعيدنا إلى زمان آخر ، يعيدنا إلى ساعتنا البايولوجية التي فقدناها .

**

أخذت أسير ببطء في الحديقة الغابية التي تحيط المنزل المنيف بشرفاته العالية المضاءة وأفاريزه الحمر ، كانت الكلاب السلوقية النحيفة عند البوابة الخارجية تقف وتنبح ، تذكرت ما قالته جدتي

بصوتها المتموج وهي تمسك أكوار الصوف :

- (هناك في تلك الظلية العالية عند البوابة الخارجية كان قد جلس مدحت باشا يوم توليه بغداد، وأكل معنا طبق العصيد) .

كانت شمس الإمبراطورية العثمانية تلقي على الأرض بشعاعها الأصفر الذي لا يقهر، ومذ كنت طفلاً وأنا أترقب أسراب طيور الزرياب المرحة وهي تموج في الحديقة الكثيفة التي زارها الوالي العثماني يوم توليه بغداد، وكأنه الرقية التي تطرد بسهامها المزهرة عن أهل المنزل كتائب السحر . لقد مات مدحت باشا منذ زمان بعيد، وما زالت قبب المساجد الصغيرة تؤذن عبر عقود من الزمان، في الحدائق المحاذية للضاحية التي ولدت فيها، وعلى مفارش الأشجار وورق الأزهار القرمزية كانت الطواويس تختال بمراوح ريشها الملون، والجياد المبقعة كل ساعة تصهل في الحظائر .

كانت المدينة التاريخية مملوءة بالطيور السائحة، والقنوات الجنائزية تمتد إلى مآذن شاهقة بلونها الفيروزي، كانت تطل على النهر الذي يلتف على المدينة مثل أفعى، حيث يتماهى طور الدولة العثمانية بريازته التركية، مع المنائر النحيفة التي غطت مساجد بغداد منذ أيام التتار . بغداد غامضة وسط الضباب، ومنازلها الشائهة بلون القنب، بينما الكنائس بيض في الضواحي، وأسراب من الأجراس التي تهتز كل فجر تؤذن بالصباح الكلداني، قرب المساجد الإسلامية التي تؤذن بالصباح العباسي منذ أيام الرشيد .

**

لملمت على نفسي معطفي الأسود الصوف، كانت نسمات الهواء

الباردة تلسعني ، فتوقفت لأرتدي قفازاتي ، هناك خطى كلب سلوقي تسير بالقرب مني ثم تجتازني ، وكانت ساعة البرج الموجودة في الدير العالي المبني على طراز القلاع مخمسة الزوايا تدق بصوتها المعدني معلنة منتصف الليل ، بينما كان الناقوس الكبير يتدلى بسلسلة ذهبية وكأن ناراً متعددة الألوان تندلع منه وهي تتلوى مثل أفعى ، تذكرت جارتنا الأرمنية التي كانت مسجاة على فراش الموت وهي تحتضر ، دقت ساعتها الموضوعة على الدولاب القريب من سريرها فتناولتها بيدها التي ترتجف وضبطت منبهها ليدق في الساعة نفسها في اليوم التالي وأعادته إلى الدولاب ، ثم التفتت إلى زوجها الذي يقف عند رأسها وقالت له :

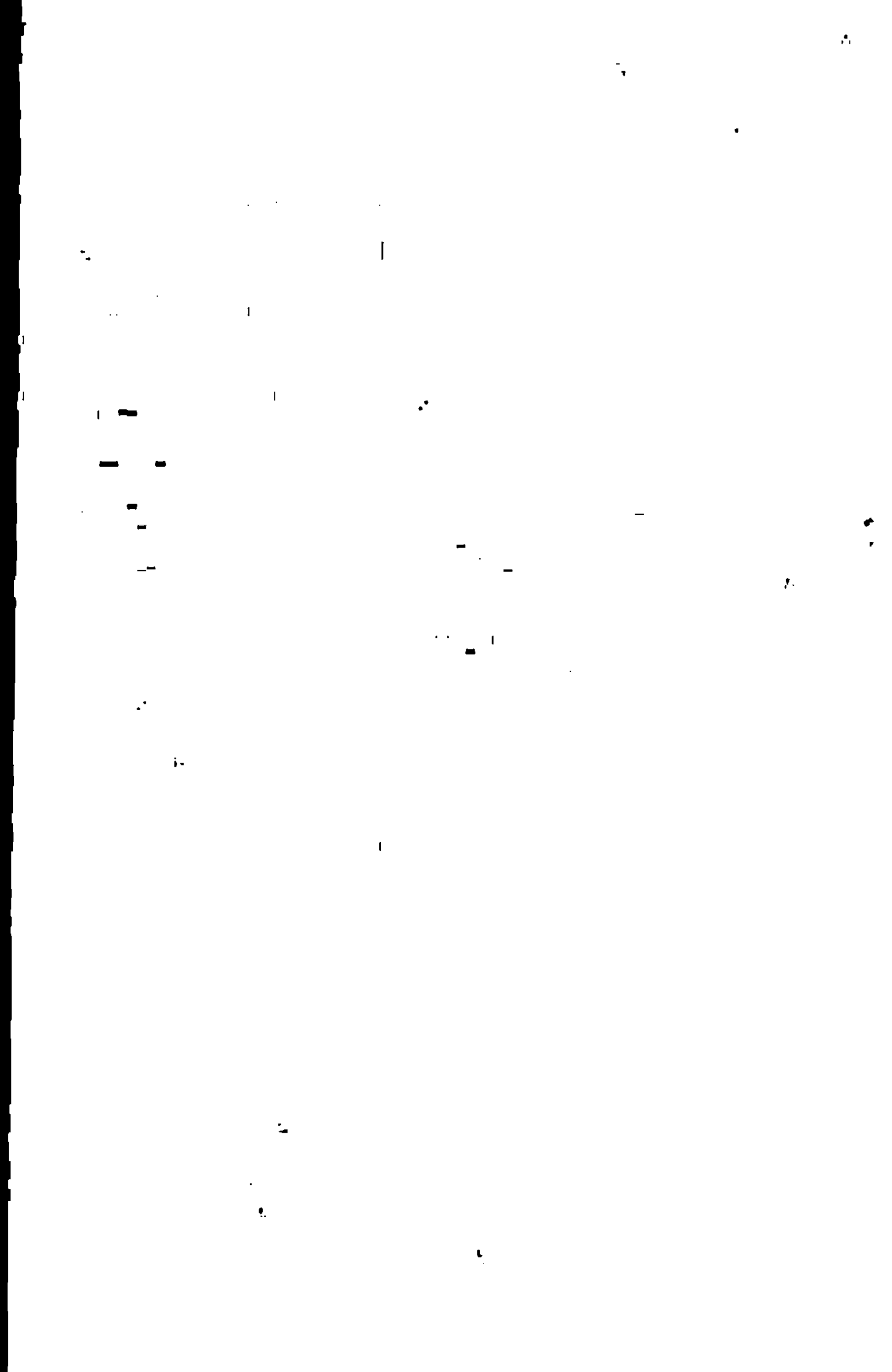
- (ما أسخف الحياة) .

**

انتشرت في الشوارع المحاذية للقصر المنيف زينة الأضواء ، كان شعاعها الشديد يلقي بظلي الطويل أمامي على الأرض ، وحين يستقبلني يستدير خلفي ، كنت أسير حتى أضحى ظلي الباهت يلامس خطى كلب ينبح أمامي وليس هناك سوى ضجة الشارع التي تتوهج وتنطفىء مثل ديانات تنبثق وتزول .

الهروب آخر

يوم من الشهر



(١)

لم تكن العمة العاطفية التي تنبهتْ في ظهيرة يوم تشريني بارد على أنوثتها ، تخلط بين العاطفة الخالصة والواجب ، ولم يكن أمر تحوير المناورات اللاشعورية للطهارة في الذهن - لأنها أشحبُ صورةً من الحب - بمستبعد ، ولكن هذا لا يعني بطبيعة الأمر إنها شديدة الفضيلة ولا كثيرة التساهل ، وقد لا يؤثر هذا الأمر بعد الظروف التي حدثت على المدى الطويل .

**

كانت العمة سليلة عائلة عربية عريقة ، نزحت من نجد واستقرت في بغداد منذ القرن العاشر الهجري ، وأخذت تعمل في التجارة بين أصفهان وبغداد أول الأمر ، ومن ثم بين استنبول وبغداد ، وتناوب الجد وأخوه نقابة (مجلس المبعوثان) في عصر الإمبراطورية العثمانية ، فحظوا بمرتبة رفيعة هيأتهم لشرف تنشئة أبناء الولاة العثمانيين واحداً بعد آخر ، وقد أسبغ عليهم السلطان عبدالحميد رتبة الباشوية حتى تحولت إلى لقب يحملونه بديلاً عن اسم عشيرتهم ، فجعلها هذا الأمر تعيش حياة مرموقة بين أوساط الطبقات الثرية برمتها ، تركية وعربية

ومماليك ، وتقرّبتْ بعد أفول شمس الإمبراطورية التركية إلى أمراء الحجاز منتصرين لأهلهم العرب في بادىء الأمر ، ومن ثم خشيةً على منزلتهم الرفيعة وهيبتهم من أن تزول ، فطبعهم هذا الطابع السامي الفريد بطراز حياةٍ رفيع المرتبة عصي على التبدل والتغير بتغيّر الأحداث فيما بعد .

ولكن بعد أن تغيرت الظروف والعهود التأريخية تغيرت أحوال العائلة الشريفة ، فقضت على نفسها : بمجانين ومنتحرين وهاربين إلى أقطار المعمورة الأخرى حالمين بمنزلة ضاعت ، ومكانة ما عاد بالإمكان استرجاعها .

**

أصرت العمة على المكوث في المنزل المنيف المطّل على ضفة النهر ، لتعيش حياتها بلا عزاء ومن دون تغيير ، كانت تتنزه في حديقة الطاووس التي تربطها ببوابة القصر بقايا القناطر القديمة وقد تشققت حجارتها الكلسية لتكشف عن تفسخ أعمدتها الخشبية التي تربط نهاياتها ، وقد غطتها أغصان التين وعقود الورد النابتة وسط الماء ، بينما اختبأت أطرافها المهدمة بالأشنات وظلال نباتات بلون القرمز والبنفسج .

في هذه الحدائق السلطانية الجليلة المطلة على النهر ، دُفن أهلها كلهم في أضرحة مرمرية مدرعة بالأكاسيا والقرنفل ، بينا غطّى الصدأ البطيء أطراف قبورهم المهملة . لقد كانت هذه الأضرحة البيض مستلقية في الحدائق المقطعة بالآس المزهر تحت الأجمات مثل نساء مستحمات ، وكانت المنازل المخروطية بأبهتها القرميدية تموج وهي

تلامس وجه التاريخ بأحلام كثيرة ، مثل أذرع اللبلاب فوق جواهر ملكية ، لمْ تطالعْها عينا العمة قط ، إلا في وجوه الوزراء ونواب البرلمان والسفراء ، وهي تستدعي إلى نفسها هذه الحياة الملكية التي عاشتها يوماً ما ، وبقيت في ذهنها مثل قطعة من اللحم محفوظة في الماء المملّح ، وكأنها لا تريد أن تغادرها ، إلا وهي مستلقية مع أهلها في هذه الأضرحة .

**

لقد فرضت العمة على نفسها ، وهي تمضي أيام عزلتها ، نظاماً صارماً متقيدة أشد التقيد بالوقت ، لتضفي على وجودها المحّطم نوعاً من المعنى :

- (هرب الوقت ، ونبضاتُ الأيام ، وسحرُ الفصول ، هو الذي يضفي على حياتي التافهة نوعاً من المعنى) هكذا كتبت لإحدى صديقاتها التي تقطن لندن منذ عدة سنوات ، ولضجرها من كتب التاريخ وموسوعات الفلسفة ، سألت صديقتها أن تبعث لها بروايات حب قصيرة ، فهي دون غيرها تخفف عنها ساعات النهار الثقيلة ، وبطء الدقائق التي تمر على وجودها قرب القبور .

كانت الروايات العاطفية المتشابكة الأحداث بصور أغلفتها الشفافة الملونة ، وبطبعاتها الأنيقة المتوسطة الحجم ، تصل إليها بشكل منتظم ، بطرود بريدية أول كل شهر : الأخوات برونتي ، جورج إليوت ، جين أوستن ، أريك سيغال ، والروايات التي تصدرها شركة (ملز آند بون) الإنكليزية المتخصصة بروايات الحب القصيرة المعاصرة ، وبعد أن استهوتها قراءة هذه الروايات ، كتبت رسالة قصيرة أخرى تطلب من

صديقتها أن ترسل إليها المزيد من هذا النوع ومن إصدارات شركة (ماسكويرد) أيضاً ، ولا سيما روايات بربارة كارتلاند التي تجسد وقائع الحب الخلابة الساحرة ، حيث تدور أحداثها حول حياة الطبقات النبيلة المترفة ، إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا .

انغمرت العمة ذائبة في صور الحب الشفافة التي تقدمها هذه الروايات وهي التي كانت تسميها من قبل تافهة عديمة الأهمية ، كانت العمة تلهث بأنفاسها الحرى وهي تضيع في مشاهد غرام : تضحيات وإغواءات من كل نوع ، اضطرابات مقلقة واهتياج ، حالات عاصفة ودموع ، حلول وسطى وانبعاث ، كانت تقرأ وهي مفتونة بنبلاء وسيمين بملابسهم الحريرية الأنيقة ، هائمين في غمرة الثورة وقلق الإغواء بفتيات جميلات ، وبسيدات مجتمع راقيات يقتلن أنفسهن من أجل فتيات طائشين ، ويصحبنهم إلى آخر الدنيا . لقد كانت هذه المشاهد تقلص لها الزمن الذي تحياه وتنقلها إلى أماكن متخيلة لا تستطيع الوصول إليها ، فتقضي الوقت بالتنهد والحسرات .

**

وفي صبيحة أحد أيام كانون المثلجة ، تلقت العمة نبأ وفاة أخيها الذي كان يقطن لندن منذ عشرة أعوام ، مع زوجته الهولندية وابنته الوحيدة البالغة من العمر خمسة عشر عاماً ، وذلك بعد أن أصيب بمرض السل أيام كان يقطن القاهرة وهو يرأس إحدى الجمعيات الخيرية المتكونة من بعض أبناء الطبقات الراقية الذين فقدوا حظوتهم بعد رحيل الملك فؤاد ، وبعض نجوم السينما ، وسيدات المجتمع الراقي .

تقبلت العمة الصدمة الفاجعة بهدوء وصبر كبيرين ، ارتدت

ملابس الحداد السود، ووضعت إيشارباً أسود من الصوف على رأسها، ثم أطفأت الأنوار في كل حُجَر المنزل وردهاته، وأشعلت ثلاث شمعات صغيرة في الصالة الكبيرة ووضعتها على المائدة الدائرية التي تتوسطها، ثم أخذت تتأمل في حزن شديد من زجاج الشرفة أضرحة العائلة المرمرية المنتشرة في الحديثة وهي صامتة مستسلمة كلياً لأحلامها، وبعد ثلاثة أيام فقط، عادت العمة بكل نشاطها القديم إلى برنامجها اليومي الذي درجتْ عليه متقيدة بالوقت أشد التقيد. تبكّر في الساعة السابعة صباحاً، ترتدي ملابسها الفاتحة الألوان الموردة، وتكمل زينتها وتتعطر أمام الخوان، ومع الدقة الوحيدة للساعة الجدارية الموضوعة في الصالة الرئيسة معلنة الساعة السابعة والنصف تكون العمة على مائدة الإفطار. ثم تنهض بعد خمس عشرة دقيقة لتجلس على الأريكة الواطئة المقابلة للنافذة العريضة، تحيطها في جلوسها المستريح الطنافس الحريرية الملونة، لتقرأ منغمسة كلياً في الكتاب المفتوح أمامها دون أن ترفع رأسها لأي شيء، حتى تدق الساعة المعلقة وراءها دقاتها المعدنية الاثنتي عشرة. تنهض من مكانها بعد أن تضع الكتاب على الطاولة التي قبالتها، ومع الدقة الأخيرة تكون قد بلغت الباب الخارجي المؤدي إلى الحديقة لتقضي ساعة كاملة في التنزه والتأمل في سائر الأشياء حتى الساعة الواحدة، إذ تغادر فيها الحديقة وتعود إلى المنزل لتأخذ مكانها على مائدة الغداء في صالة الطعام، وقد يقف الخادم يمسك بيديه الصينية الفضية الكبيرة متأهباً لأوامرها وعيناه ترمقان الساعة الكبيرة التي قبالته، حتى تنهي طعامها بعد ربع ساعة دون تأخير، ثم تجلس

عند الوجاق المرمري وقهوتها الساخنة التي تضوع برائحة الهيل النفاذة بانتظارها ، يمسكها الخادم السوداني بطربوشه الأحمر المائل على جبينه الخلاسي ، وعيناه البقعاوان تتلاقطان مثل خرز لدن .

في الساعة الثانية ظهراً تصعد العمة درجات السلم إلى حجرتها في الدور العلوي لتستريح في الفراش ساعتين اثنتين ، ثم ترتدي ملابسها المسائية الغامقة الألوان وتتزين أمام المرآة مرة أخرى وتهبط في الساعة الرابعة تماماً لتتناول التارتات المطعمة بالفاكهة ، وتشرب العصير المغمس به بتلات الورود ، يقف على خدمتها الثلاثة : سليمان والخادمان السودانيان ، وعلى مقربة منها يقف (الشوفير) يتلقى الأوامر والتعليمات ، ثم تنغمس في القراءة مرة أخرى حتى الساعة الثامنة ، ومع دقة الساعة الأخيرة تكون على الطاولة في البهو المضاء لتتناول العشاء والقهوة المعطرة ، وتنغمس في حجرة مكتبها في تدقيق الفاتورات والإيرادات من العقارات التي تملكها في أنحاء بغداد المختلفة ، حتى الساعة التاسعة حيث تجلس في الصالة على الكرسي الهزاز أمام الوجاق تتأمل في النار وحيدة ، تطلق التنهدات والحسرات حتى الساعة العاشرة .

بعد ذلك ترتقي السلم المرمري مرة أخرى ومع الدقة المعدنية الأخيرة للساعة الموضوعة على الجدار تكون العمة قد أغلقت باب حجرتها لتستسلم للنوم ، فيخمد المنزل بكل حجراته وردهاته ، ويعم الظلام والسكون ولا يسمع هنالك سوى ضجة السيارات القادمة من الشوارع القريبة ، ونباح الكلاب السلوقية في الحديقة .

**

في ظهيرة أحد أيام الأسبوع الثالث لوفاة أخيها ، تلقت العمة خطاباً من ابنته ، خطاباً حزيناً يائساً تخبر الفتاة عمتها فيه ، أن أمها الهولندية مصرة على السفر والعيش في هولندا مع صديقها الذي يصغرها بخمسة أعوام الذي تنوي الزواج منه هناك . ولأنها لا ترغب في السفر إلى هولندا مهما كلف الأمر ، ولأنها لا تحتمل الحياة برعاية (زوج أم) مهما كانت هذه الرعاية : فإنها ترغب بالعودة إلى منزل أبيها أو كما كانت تسميه (منزل العائلة) بأسرع وقت ممكن .

كتبت لها العمة وهي تعزيها بعواطف حارة صادقة ، أنها تود استقبالها هنا ومن كل قلبها في المنزل :

(إذا كنت تظنين أني بهذا أصنع معروفاً ، أو إحساناً فأنت مخطئة ، لأن المنزل الذي أقطنه منزلك مثلما هو منزلي ، ولك الحق ، كل الحق في العيش فيه أنى شئت) .

كأن الفتاة لم تصدق ما كتبته العمة لها ، استقلت الطائرة الأولى القادمة من مطار لندن إلى مطار بغداد . وهناك استقبلها شوفير العمة بسيارته الروز رايس الفضية ، وأقلها إلى المنزل .

**

دخلت السيارة بوابة الحديقة الخارجية وأخذت تسير بهدوء في الممر الرئيس حتى وصلت الدكات المرمرية قبالة الباب المشرع ، هرع الخادمان السودانيان لحمل الحقائب والأمتعة ، وسليمان الذي فتح الباب كان منخرطاً ببكاء حار ، فأخذ يقبل يديها والدموع تسيل على خديه ، بينما انطلقت الفتاة إلى داخل المنزل ، وما إن بلغت الردهة الحولية حتى قفزت العمة نحوها برشاقة لتعانقها عناقاً ساخناً ،

وقبلتها بعد أن ضمتها بحنان إلى صدرها من خديها الموردين ، كان وجهها يطفح بغبطة مشعة ، وفاض وجه العمة بسرور كبير . لم تكن الفتاة قد تعرفت في حياتها قط على عواطف ملتهبة كهذه العواطف وهي تحيا بين ذويها المنفصلين .

أخذ سليمان - بشعره الفضي وبطاقيته السمرقندية الملونة - يتسلق درجات السلم بخفة ، فتح لها باب حجرتها التي ستقطنها ، وهي الحجرة نفسها - كما أصرت العمة على ذلك - التي كان يقطنها والدها من قبل ، ولم تتمالك العمة عواطفها الملتهبة وهي تتملّى بفرح آسر قسمات ابنة أخيها وقد نضجت بشكل ساحر ، وامتلكت الأنف الأفطس المرتفع نفسه من أعلاه قليلاً ، الذي يميز العائلة العريقة برمتها رجالاً ونساء ، وقد وصفته واحدة من سيدات المجتمع آنذاك للتندر أنه لم يكن خلقة فيهم (إنما هذا بسبب الأنفة والغطرسة التي لزمت العائلة لزمن طويل وطبعتهم بطابعها ، فارتفع الأنف قليلاً لينتقل وراثياً إلى كل العائلة ، جيلاً بعد جيل) .

لم تغضب العمة من هذا الرأي مطلقاً إنما صدقت ما قالته السيدة للتندر يوماً ما ، ولا بد لكل خلقة على هذه الأرض من سبب واضح وأكيد .

أخذت العمة ابنة أخيها من يدها الطرية الناعمة لتدلها على حجرتها الكبيرة المؤثثة تأثيثاً فخماً وهي الغرفة التي تحوي بعضاً من ذكريات أبيها المتوفى ، ولترشدها وهي تتحدث بصوتها الحنون الشجي إلى كل ملحقات المنزل وأدواره ، وحجره ، وأروقته وهي تفسر لها بشيء من التفصيل ، موضحة بالسنوات والأيام مراحل تشييده ،

والترميمات التي لحقت به جراء عوامل الطقس والزمان ، ولم يفتها شيء من ذكريات العائلة العتيدة التي قطنته ، والتي تنام الآن في الحديقة الشمالية في القبور ، مفصلة للصغيرة التي ترافقها كل برنامجها اليومي بدقة متناهية ، مؤكدة أهمية ضبط الوقت الذي يمنح الحياة التافهة معناها الحقيقي ، والذي لولاه (لعشنا الآن في بحر من الأيام لا رابط بينها ولا فاصل سوى التراكم والتعاقب الرتيب) .

كانت الفتاة تهز رأسها موافقة على كل ما تقوله العمة دون أن تعبأ بشيء ، طالما بلغت أخيراً مكان عائلتها الذي شعرت بحتمية العودة إليه مذ بدأت مناورات أمها للانفصال عن أبيها ، أيام كانوا يقطنون القاهرة .

**

رفضت العمة التحاق الفتاة بالمدرسة أيا كان نوعها - خاصة أم عامة - لئلا تفسد فيها طبيعة العائلة التي ينبغي المحافظة عليها وصيانتها مهما كلف الأمر . لقد أرقها الموضوع كثيراً وقد ناقشته معها في كل مكان : في الحديقة وهي تتنزه معها في العصاري المشمسة ، على المائدة في أوقات الطعام ، أو أمام الوجاق في الأمسيات الممطرة الباردة . لقد درست العمة الأمر من كل وجوهه وهي ثابتة مصرة على رأيها حازمة حين تتحدث إلى سليمان بهدوء وروية تامة : (لو كانت العائلة تقطن برمتها المنزل معي ، وتتربى الفتاة بيننا لهان الأمر علي بشكل كبير ، وبذلك يصبح تأثير المدرسة السيىء عليها أقل شأناً . . ولكنني هنا بمفردي وأخشى أن تفسد الفتاة وهي بهذه السن الحرجة جراء الاختلاط مع بنات لا نعرف شأن عائلاتهن . .) .

كان سليمان يقف أمامها بطاقيته وملابسه العريضة البيض المهفهفة يوافق على كل ما تقوله السيدة دون أن يعير جوهر الكلام أهمية كبيرة . فليس من المعقول - في منطق سليمان - أن تتربى سيدة في هذه العائلة الشريفة ويكون لها أخطاء كباقي السيدات . . فاتخذت قرارها بتعليم الفتاة تعليماً كلاسيكياً .

**

في صبيحة اليوم التالي ، وبعد أن هبطت العمة مبكرة درجات السلم المرمرية التي تضوع منها نكهة التفاح ، توقفت على الدرجة الأخيرة الملتوية إلى اليسار وهي تمسك بيدها الملفوفة بقفاز البريم الأبيض المرصع بالألماز محجر السلم البرونزي ، كانت زقزقة العصافير الصداحة تأتي مباشرة من شرفات الصالة المطلة على الحدائق الشديدة الخضرة ، المغسولة بندى كانون البارد ، أعدت برنامجاً مفصلاً لتعليم الفتاة وسوت كل الترتيبات التي تتعلق بهذا الأمر ، وعيناها على الروزنامة الموجودة على الحائط ، ثم دخلت معها إلى المكتبة .

كانت مكتبة العائلة الضخمة المتوارثة جيلاً بعد جيل ، حجرة طويلة بقاطعين خشبيين اثنين ، كانت أنيقة أناقة باذخة ، مكسوة جدرانها بألواح مشرحة من البلوط الهندي المائلة إلى اللون الأحمر الغامق قليلاً ، وقد غطت أرضيتها الفسيحة بسط طويلة من الصوف الأصفر المعتم المورد ، فرشت عليها السجاجيد الفارسية الفاخرة المهدبة النهايات ، وقد كانت الموسوعات بألوانها الزاهية والكتب الضخمة بجلودها الطرية الموشاة بماء الذهب ، مرصوفة على الجدران الشاهقة من الأسفل إلى الأعلى ، ما خلا الزوايا الثلاث التي احتلتها

الأرائك المفروشة بالطنافس الحريرية ، والمكاتب التي تتوسط الحجرة ، حفظت في جواريرها الوثائق التاريخية وذكريات شخصيات العائلة الدبلوماسية والسياسية وألبومات صورها ، وتاريخ رحلاتها الرسمية وزياراتها ، وفي أعلاها رتبت القراطيس الثمينة والأقلام المذهبة والعديد من المحابر بألوان مختلفة ، كل شيء في المكتبة مرتب ترتيباً عالياً : طنافس الأرائك الحريرية ، الساعة الدقاقة التي على الجدار المقابل والمختومة بالشعار الملكي ، الستائر المخمل الهابطة بثقلها على الأرض ، وقد تناولت العمة كتاباً أصفر الغلاف ، أنيقاً ، مذهب الحواشي من الرف الذي يقابلها - موسوعة العلوم الطبيعية - ووضعته على طاولة صغيرة من الخشب الأبيض العاجي الزكي الرائحة ، وبعد ذلك تناولت مجموعة من الأطالس ورحلات ماركو بولو ، ورحلات ابن بطوطة ، وألف ليلة وليلة ، وكتباً أخرى في التاريخ والحضارات القديمة لتحملها إلى المكتب الذي جلست عليه الفتاة وعيناها تتلاقطان خلف عمتها ، وقد حمل الخادم السوداني - وهو يرتدي طربوشه الأحمر ومريوله الأبيض الناصع - صينية فضية ، وقدم لهما الشاي المعطر بالهيل بأكواب سيراميكية ، وأخذتا تتصفحان الكتب .

**

فتحت الفتاة أدراج المكتب وأخذت تقلب خطابات العائلة الخاصة وكأنها تتعرف على نفسها في الزهور الذابلة المرسلة بالبريد وبقطع الدانتيلا المتكسرة المحفوظة بظروف وردية خفتت عطورها .

لقد رحلت الفتاة مع عمتها إلى المناطق القصية على الورق الصقيل ، وعلى الخرائط المفصلة للكرة الأرضية التي تقع خلف

الشرفات القريبة منهن ، وكأن الحياة الباردة في الخارج انسحبت داخل المكان الدافىء المعطر الذي يعشن فيه ، ساعات وساعات ، حتى غفت الفتاة على الأريكة الواطئة من الراحة والحنان الذي غمر بنعومته الغرفة ، في تلك اللحظات الآسرة .

**

كانت الأيام الثقيلة بإيقاعها البطيء تمر ، الفصول المختلفة تتعاقب ، وورق الروزنامة يتطاير في الهواء يوماً بعد يوم ، كأن تيار الحياة يتقاطع مع نفس المرأتين على وتيرة واحدة تغيره دورة الأفلاك والتحولات المناخية ، على وفق إيقاع الحياة الداخلية للمنزل الذي يسير في جمود برنامجه اليومي وقد تقيد به أهل المنزل أشد التقيد . كان الزمان الكثيف يتركز في الامتداد الطويل للحياة الشاحبة المبهمة في نقطة واحدة ، لا تبدل ولا اختلاف فيها ، ولكن الحقيقة مختلفة نوعاً ما ، فالتغير غير المحسوس يطرأ شيئاً فشيئاً يتعذر إدراكه ، مثلما يتعذر على العمة أن تفاجىء الحديقة الكثيفة وهي تتغير من فصل إلى فصل .

لقد مرت أشهر طويلة والعمة تحاول إقناع الفتاة بقراءة رواياتها :

- خذي هذه الرواية تحملي أول الأمر ثم استمري . . . اعتبريها دواءً مراً . . ولكن يمكنك تجرعه .

- (عمة ما اقدر . . ما أحب الروايات) .

- (حاولي لا أستطيع تركك هكذا . . أنا أقرأ وأنت تجلسين وحدك صامتة . . حاولي . . حاولي) .

المحاولات الأولى فاشلة ، لكنها نجحت في قراءة رواية أو روايتين

للكاتبة الإنجليزية باربارة كارتلاند ، ومن ثم تعلمت طريقة أخرى ، تمسك الرواية بيدها وتذهب بعيداً . . بعيداً في أحلامها ، كل يوم هناك ، قبالة الوجاق في الصالة الدائرية شتاء ، في الحديقة العظيمة قرب النافورات المنشأة عند الأضرحة المرمرية البيض للعائلة صيفاً ، والبرنامج اليومي يعاود نفسه مع دورة الفصول وتعاقب السنوات الثقيلة . كانت الفتاة تنضج يوماً بعد يوم وهي تحدق في جسدها المخصر في المرآة الدائرية في طرف الحجرة على خوان جدتها ، لقد أضحت في سن السابعة عشرة ، تنظر طويلاً ومن غير ارتواء استدارة وجهها الدقيقة التي تحيط بالخدود الموردة ، وقد ضاعف جمالها نظرتها الثابتة في عينيها القاتمتين ، كانت تسير بقامتها المخصرة ، وشعرها الأسود المتموج ينسدل على الأكتاف العريضة ، وأنفها الأفطس الجميل يرتفع من الأعلى يميز العائلة المتغطرسة برمتها ، كانت تسير بكبرياء ، سير عمتها الأربعينية العذراء التي تعيش حياتها وهي تحدق إلى عقارب الساعة التي تنحل فيها بشكل بطيء .

(٢)

في أحد أيام تشرين الباردة برداً قارساً ، وقفت العمة صباحاً قبل هبوطها قبالة الشرفة الشمالية في حجرتها الكائنة في الدور العلوي من الجهة المطلة على النهر ، كانت ترقب زورقاً صغيراً وسط الضباب يشق الأمواج الساكنة بهدوء ، وكان الضباب الصباحي الشفيف يلفه بغمامة خفيفة مثل ستارة من موسلين ، كان الزورق ينحدر رويداً رويداً في الفجر الأبيض الباهت ، وهي تنظر عبر نافذتها ، لقد طرأ عليها تحول كبير وهي تحدق في المشهد الساكن ، وكأنها أحست بأنها خضعت لتنوير من نوع ما ، لقد أدركت في تلك اللحظة أنه الزورق الذي يحمل البشر وهم نيام في نهر أثيري إلى الأبدية ، فاستولى عليها آنئذ حزن قاس ، لقد شعرت بالمرارة وهي تعصر لها قلبها ، فأخذت تهبط درجات السلم المرمرية بهدوء ووجوم كبيرين .

**

انزوت العمة لحظتها مختلية بنفسها عند الوجاق الذي هب سليمان لإشعاله قبل وصولها بدقائق قليلة ، وأخذت تتنفس بصعوبة على الكرسي الهزاز أمام ابنة أخيها ، تتنهد وتطلق الحسرات وكأن

دموعها الحبيسة توجع لها قلبها ، كانت تحدق في النار المنعكسة على وجهها الذي أخذ يحمر رويداً ، رويداً من الدفء والحزن معاً .

بعد الظهيرة هبت عواصف شديدة الدوي ، كانت العمة على طاولة الطعام تتناول غداءها دون شهية ، سكنت قليلاً وهي ترفع عينيها صوب النافذة ، واضعة الشوكة والسكين جوار الصحن ، ثم نهضت لتخطو خطوات وئيدة نحو النافذة ، أزاحت الستائر الثقيلة قليلاً محدقة بالمشهد الشتوي الذي أخذ يعتم شيئاً فشيئاً حتى ساد الفضاء ، كانت الغيوم تتجمع بسرعة ، وبعد دقائق انهمر المطر كثيفاً وقوياً وهو ينصب إلى الأرض بصورة متواصلة ثقيلة ، اغتسلت الأشجار بانهماره وفاضت أطراف الحديقة على الممرات القرميدية بسرعة ، وبعد لحظات قليلة هرع الحارس الكردي وهو يحمل غطاء مشمعاً بني اللون على رأسه ، خرج من جوسقه الخشبي الكائن عند البوابة الخارجية المقفلة بالسلاسل ، راكضاً باتجاه المنزل بعد أن تسربت المياه إلى داخله من الأعلى ، وغزته بتدفقاتها العاتية من الأسفل ، ومن ثم خرج سليمان مهرولاً نحو الكلاب السلوقية التي احتمت بالأفاريز الطويلة الحمر التي تكلل واجهات المنزل وهي سابحة بالماء ، بعد أن أخذت تنبح نباحاً متواصلاً ، فجمعها وأخذ يسوقها أمامه إلى العنابر الموجودة في جانب المنزل من الخلف ، فانسحبت العمة من النافذة وأخذت تضيء غرف المنزل وأدواره واحدة بعد أخرى ، بعد أن أخذت تعتم بلون كامد وحشي .

**

في المساء وبعد أن أظلمت الدنيا ظلاماً دامساً ، توقف المطر الذي

كان ينهمر انهماراً متلاحقاً ساعة واحدة ، وطوال هذه الساعة كانت السماء تربد بالرعود الهادرة التي كانت تهز أرجاء المنزل كله ، وكانت أصوات الميازيب التي تخرخر في الحديقة ما زالت تتواصل متناغمة مع القطرات الثقيلة الهابطة من الأفاريز المعدنية على البلاطات الحجرية الملونة التي تحيط المنزل بأجمعه ومن كل مكان ، وبعد أن دقت الساعة الثامنة هدرت السماء برعود عاتية ، وعاود المطر انهماره الشديد ثانية بقسوة شديدة أول الأمر ، وبعد ثلث ساعة من هذا التدفق العاتي خففت السماء من عنفها وقد أخذ المطر درجة واحدة ثابتة ، متواصلة ساعات الليل ساعة إثر ساعة ، حتى بلغت الساعة العاشرة .

كان صوت ارتطامه المتلاحق على زجاج النوافذ ، وعلى الأفاريز المعدنية يقتحم الصالة المضاءة ، فنهضت العمة من الكرسي الهزاز الذي تجلس عليه وهي ساهمة تتأمل النار المتلامعة قبالة ابنة أخيها ، كانت الفتاة تتابع بنظراتها المندهشة سلوك عمتها الصامت هذا اليوم ، لتأخذ من الأريكة الدائرية قطتها ذات الشعر الغزير ، وهي تموء بين ذراعيها دون أن تتكلم ، ثم أخذت تصعد السلم المرمري متجهة إلى حجرتها الكائنة في الدور العلوي ، ثم أعقبتها ابنة أخيها لترقى هي أيضاً درجات السلم بعد أن أخذت المصابيح في الصالة والردهات تنطفىء واحدة بعد أخرى حتى أعتم المنزل .

**

كان المنزل المنيف بشرفاته العالية ونوافذه العريضة المطلة على الحدائق الجليلة مطفأ تماماً إلا من غرفة العمة الكائنة في الدور العلوي

للمنزل ، لقد كانت شرفتها تطل على الحديقة وهي مسدلة نصف إسدال ، حيث تسمح للضياء الأصفر الشاحب بالانبعاث بصورة ثابتة يمكن من خلاله تمييز انهمار رذاذ المطر الهابط من السماء بصورة واضحة ، لقد كانت غرفة العمة مضاءة ، وكان المطر يهطل بغزارة وهو يرشق الإفريز الكائن تحت الشرفة مباشرة بأصواته الكئيبة المختلطة مع أصوات الكلاب السلوقية التي تنبح بهلع وهي مسجونة في العنابر المحاذية لسياج الحديقة خلف أشجار الزعرور .

أوقدت العمة المدفأة الزيتية في زاوية الغرفة ، ووضعت كتابها على الخوان ذي المرآة المبرنقة العالية ، وقبل أن تخلع ملابسها حدقت في شعرها ممعنة في الخطوط الفضية التي لمعت في خصلاته المتموجة ، وأخذت تمرر أصابعها الطرية الناعمة المحلاة بخواتم الألماز على قسمات وجهها المتعبة ، وبعد دقائق ابتسمت وهي تنظر نحو نفسها ابتسامة تعصر القلب ، وأشاحت بوجهها عن المرآة ، أطفأت الأضواء ، أطفأت الشمعدان كله إلا شمعة واحدة ، حاملة إياها بيدها إلى الطاولة القريبة من سريرها ، ثم خلعت ملابسها لترتدي ملابس النوم فقفزت القطة لتتكوم بين الملابس الدافئة المرمية على السرير ، فحملتها العمة وأخذت تمسدها وهي تموء وتغرغر بعيونها التي تلمع أمام لهب الشمعة ، ثم أطفأت الشمعة الوحيدة ، وتدثرت مع القطة في الفراش ، ووضعت رأسها على الوسائد الحريرية ، وأغمضت عينيها بهدوء ، مطلقة في الفضاء الدافىء حسرة ساخنة . كانت ترهف سمعها لدقات قلبها ، كان صوت المطر الغزير يضرب الشرفات ويخشخش فوق الأفاريز المعدنية التي تكلل الواجهة ، مختلطاً بهزيم

الرعد المدوي بين آونة وأخرى ، وكان وميض البرق يضيء المنزل المعتم بلمحة ومن ثم يختفي .

**

وبعد أن استسلمت العمة لإغفاءة قصيرة ، سمعت فجأة صوت الحارس يتعالى وهو يطلق عيارات نارية من طشاريته (البرتا) ، ثم اجتاحت المنزل دربكة الأقدام في الأسفل ، وجلبة متلاحقة موصولة مع اصطفاق الباب الخارجي ، ممتزجة مع صوت سليمان الخادم ذي الرنة المعدنية ، ومع أصوات الخادمين السودانيين وهما يؤزئزان بلهجتهما السودانية المتقطعة ، وكان صوت المطر المخشخش في الخارج ودوي الرعد وزمجرة الكلاب السلوقية المطلقة من العنابر في الحديقة ، وهي تنبح ، توحي باقتحام شخص غريب للمنزل في هذه الساعة المتأخرة من الليل .

**

نهضت العمة على عجل وهي ترتدي برنصها الصوف المخطط بخطوط ناعمة ، وأشعلت الشمعدان مرة أخرى لتنظر إلى ساعتها التي تشير عقاربها الذهبية إلى الساعة الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل ، تناولت شالاً من القطيفة الناعمة من الكرسي الموضوع قبالة الخوان ، ووضعته على رأسها ، وبعد ذلك خرجت من غرفتها وتوقفت برصانة على الدرجات الأولى من أعلى السلم بقامتها المنتصبة ، وفي يدها الشمعدان الفضي ذو الشعل المتعددة يضيء جانب وجهها الأيمن بصورة ثابتة وشجاعة ، فهرع سليمان مرتبكاً إلى

داخل المنزل وهو يفرك يديه الضخمتين . دخل من الباب الخارجي الذي يفضي إلى الحديقة ، مبتلاً تماماً من طاقيته المنقوعة إلى أحذيته التي تخشخش بالطين ، وكان وجهه الشاحب المتغضن يقطر بالماء ، يتبعه أحد الخدام السودانيين دون طربوش وقد تلألأت قطرات من المطر فضية على شعر رأسه الإسفنجي وهي تلمع في الضياء الواهن المنبعث من القنديل الزيتي المعلق على الحائط الذي يقابله .

- (خانم . . خانم . . شخص غريب دخل علينا . . هو وزوجته . . يدعي أنه من أقربائك) . قالها سليمان وهو يلهث ، وما إن نطق كلماته الأخيرة التي خرجت من شفتيه المرتجفتين بصعوبة بالغة ، حتى اقتحم الصالة رجل طويل القامة بخفة ونشاط هائلين .

استدار نحو المرآة الكائنة لدى المشجب الخشبي يمين الباب وأخذ يخلع معطفه المطري الأسود المصنوع من المشمع الفاخر ، ثم انتزع منديلاً أبيض ناصع البياض من جاكتته الكحلية اللون الأنيقة ، وأخذ يمسح الماء عن شعره الأسود الفاحم ووجهه . تبعته امرأة شقراء ترتدي معطفاً مطرياً أحمر اللون بثنيات ، وبيرية فاقعة . استدار الرجل إلى الوراء استدارة كاملة ، وتقدم بخطوات واثقة وهو يسير سيره الرصين المذهل ، ثم توقف أسفل السلم ، بينما اتضحت ملامحه الوسيمة شيئاً فشيئاً في ضوء المصابيح التي تنير الردهة الحولية ، وقال بصوته الرنان :

- (أعتقد . . نسيتني بعد هذه المدة الطويلة . . وما تتذكريني . .) تقدمت زوجته ، حتى أصبحت إلى جانبه تماماً ، وهي تنقل عينيها الخضراوين بين فضاء الصالة . . (أنا ابن باهرة . . باهرة بنت محمود

الباشا . . قريبتك . . نسيتني . . مرت مدة طويلة . . ما شاف أحدنا الآخر . .) .

لقد كان كلامه واثقاً ، وحين التقت نظراتهما ، أحست العمة بالدم يغيض من وجهها ، وتملكها فزع عجيب ، لقد تيقنت أنها أمام شخصية ساحرة ، مدمرة ، بتقاطيع وجهه الدقيقة الناعمة ، وعيونه القاتمة التي تشع ، وهي تتلاقط بحيوية في وجهه الحنطي المتموج ، وشعره الأسود السرح المبتل تماماً بالماء .

- (طبعاً . . طبعاً أذكرك) . قالتها وهي تبتسم ابتسامة مائعة مرتبكة ، ومن ثم هبطت السلم بهدوء .

- (عمة . . عمة . شكو . .؟) قالت الفتاة بصوت ناعم نصف نائم ، وهي تخرج من باب حجرتها ، وحين رأت الرجل الغريب مع عمتها أسفل السلم ، ارتدت إلى الوراء ، ارتبكت واحمرت وجنتاها .

- (. . عفواً . . كنت أظن عمتي وحدها) . قالت الفتاة وهي تلم على نفسها روبها الأرجواني المورد ، وتهبط درجات السلم . فالتفتت إليها عمتها وهي تقول :

- (هذا ابن باهرة بنت محمود الباشا . . قريبتنا ، جاء لزيارتنا ، سلمي عليه . .) فالتفت الرجل إلى المرأة الشقراء التي بجانبه وقال :

- (هذه زوجتي نازك . . ترافقني . . جئنا لنقضي شهر العسل في بغداد . فأنت تعرفين أننا نسكن من زمن طويل في الخارج) .

- (طبعاً . . طبعاً أعرف) . قالتها العمة وهي مرتبكة تماماً أمام المرأة الشقراء التي لم تنطق بكلمة - بل اكتفت بنقل نظراتها الخضر الباردة في أرجاء الصالة ، وانشغلت بخصلات شعرها الشقر المنسدلة

على أكتافها ، لقد كانت جميلة إلا أن جمالها من ذلك النوع البارد الشاحب الثلجي ، المنشغل بنفسه ، الذي يشعرك وأنت تنظر نحوه باليأس ، كالإحساس الذي شعرت به العمة وهي تنظر نحوها ، بينما تقدم الأربعة نحو الوجاق . هرع سليمان نحوه وأخذ يشعل الحطب الرطب ثم جلس الأربعة على الكراسي الهزازة الموضوعة قبالة النار .

**

كان المطر ما زال يهطل وهو يضرب زجاج النوافذ ، وصوت تدفق الماء في الحديقة ما يزال متواصلاً مع صوت الرعد ، وضوء البرق الخاطف يقتحم الصالة الدافئة التي دخلها الأربعة بهدوء وسكون .

كانت العمة وهي تحتسي الشاي ، تنظر نظرات متقطعة ، وهي تحول عينيها بين الغريب وزوجته :

- (عجيب أمر الطقس ببغداد . . إنه يتغير بالأيام . . وأحياناً بالساعات . . اليوم بارد ، مو صحيح؟) .

كانت العمة تحاول استدراجهما إلى الكلام عن أشياء عامة ، أو لتكسر جمود هذه الزيارة غير المتوقعة .

- (نعم . . الطقس يتقلب كالنساء . . لا ، النساء يتقلبن كالطقس . . كما تقول رجاء . . رجاء زوجة عصام المفتي قريبكم . . تعرفينها إنها في عمان) .

- (رجاء . . زوجة عصام . . غير ممكن) . قالت العمة مندهشة وهي تفغر فمها أمام الغريب .

- (طبعاً . . رجاء . . العجوز . . اللي تلبس بيرية حمرا . . وشعرها القصير القصير المجعد اللازق بجمجمتها) .

وحين لفظ الكلمات الأخيرة ، فطس الغريب من الضحك وتبعته عاصفة من ضحك الفتاة والعمة ، بينما اكتفت زوجته بالابتسام ، ثم قال وهو يضحك :

- (تعمل هذه الأيام بتقديم النصائح . . الشيء الوحيد الذي لا تتقاضى منه ثمناً هو النصائح . . تعرفينها شلون بخيلة . . لو كانت نصائحها نافعة لطلبت ثمنها أيضاً . . هي مو بغدادية . . مو صحيح؟) .

- (ما أعرف . . كنا نعرفهم عن طريق بيت المميز) .

قالت العمة وهي تغالب ضحكتها ، فتشجع الغريب على الكلام :

- (مرة نصحت أحد التجار السوريين بالمراهنة على جواد بالريسز . . ولما ربح الجواد اتصلت بزوجته وهددتها . . إما يناصفها بالأرباح أو تشتكي عليه بالسفارة . .) .

ضحكت العمة حتى احمر وجهها من الخجل وقالت مندهشة :

- (غير معقول . . أنت تمزح) .

- (لا واللّه ما أمزح) . قال الغريب .

- (ماذا تعمل رجاء هذه الأيام . . في التجارة؟) . قالت العمة وهي تفتح عينيها على اتساعهما نحو الرجل الذي وضع ساقاً على ساق وهو يتحدث .

- (لا . . يا تجارة . . عندها عمل آخر أهم . . هذه الأيام . . تتعلم قراءة الكف) . قال ذلك وهو يتكلف الجد ، فضحك الثلاثة بصوت عال بينما كان سليمان يلم أكواب الشاي .

- (. . باللّه لا تمزح . .) .
- (ايه واللّه . . قراءة الكف) .
- (ولكن شلون؟ . . شلون؟) .
- (بعد أن فشلت كل برامجها الاجتماعية أخذت تقرأ الكف للسياسيين والممثلين والممثلات . . تعرفت على راهب عراقي يسكن في بيروت من زمان . . وهو الذي علمها قراءة الكف . .) .

ضحكت العمة حتى أدمعت . . بينما اندهشت الفتاة من هذه اللغة العجيبة التي يتحدث بها ، وكانت تستمع للمرة الأولى إلى شخص يتحدث عن الناس بصورة وقحة ، وبطريقة غريبة لم تألفها من قبل .

- (الظاهر . . أنتم تعيشون سعداء في الخارج . . وتقضون الأيام دون أن تشعروا بمرور الزمن) . قالت العمة وهي تنظر نحوه وكأنها تتحدث عن عالم آخر لا يمكن الوصول إليه إلا بوساطة الخيال .

- (طبعاً لا تعيش الناس مثلي . . أنا شيء وهم شيء آخر) قالها وهو يتطوس بكبرياء ظاهر ، وقد فاحت من شعره رائحة زيت معطر غريبة ومميزة .

- (صحيح . .) قالت العمة والتفتت إلى ابنة أخيها التي قالت هي أيضاً :

- (صحيح) . وهزت كل منهن رأسها للأخرى وقلن بصوت واحد (صحيح . . صحيح) . كانتا مذعنتين ، موافقتين لما قاله الرجل وبكل خضوع .

وحين التفتت العمة إلى الساعة الموضوعة على الجدار ، رأت

عقارب الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل ، فأشارت إلى الخادم الذي هرع نحوها مسرعاً :

- (خانم ، غرفة الضيوف جاهزة) .

- (لا بد أن سفرتكم كانت شاقة ومتعبة ، كما إن الطقس متعب جداً هذا اليوم ، بإمكانكم أن تأخذوا راحتكم) .

قال الغريب وهو يضحك :

- (لو كان الأمر يخصني فأنا مستعد للحديث حتى الصبح . . لأن الحديث مع النساء لا يتعبني) .

ابتسمت العمة له دون أن تعرف ما تقول له ، بينما شعرت الزوجة بالضيق من كلامه وقالت - (والله أنا متعبة . . وأريد أن أنام) .

فقال لها مباشرة (طيب . . طيب . . نصعد حتى ننام) .

ابتسمت الفتاة لقدرته الهائلة على المزاح ولوسامته ، وقد ميزت فيه وجهه الحنطي الوسيم ورشاقته ، وشعره الأسود السرح الممشط الذي تضوع منه رائحة الزيت المعطر ، ثم نهض الأربعة من أماكنهم ، وأخذوا يرتقون درجات السلم بهدوء حتى انطفأت مصابيح المنزل كلها ، إلا حجرة العمة التي بقيت مضاءة لمدة ساعة أو أكثر ، فقد جلست العمة أمام الخوان تغير من هيأتها .

**

لم تبكر العمة صبيحة اليوم التالي كعادتها ، إنما تأخرت عن خروجها من حجرتها - في برنامجها اليومي - نصف ساعة تقريباً ، ففي الساعة الثامنة والنصف ، في اللحظة التي دقت فيها الساعة

دقاتها المعدنية في فضاء الصالة ، فتحت العمة باب حجرتها الموصد وأخذت تهبط السلم بهيئة مغايرة لهيئتها اليومية ، لقد اختفت الخيوط الفضية التي كانت تخط شعرها بالحناء الكستنائية ، وارتدت ملابس فاخرة :

تنورة ضيقة قصيرة تصل حد الركبتين بثنيات تركوازية مصنوعة من الكريب دوشين ، بلوفرا من الساتان الأسود المقلم بخطوط ذهبية وفضية بطيات حرير وحواف مزررة ، ضيقاً عند الصدر ومخصراً بصورة أنيقة ، ووضعت على الكتفين العريضين كاروها بلون الكاب بياقة مروسة ، وجيوب مقمعة ، وكانت أزراره ذهبية صغيرة ، ومن جيب الصدر تدلى منديل حريري بلون فاتح مذهب الحواشي .

كانت العمة تمسك محجر السلم المرمري بيد ترتدي قفازاً مصنوعاً من جلد الضأن ، أبيض محلى بخواتم الألماز .

(٣)

طلعت العمة في الصالة حيث كان الغريب يجلس وحده أمام الوجاق ، وهو يلقي بالحطب في النار المتلامعة ، وحين التفت إليها ، وهي تسير بهدوء ، لمع شعرها الذي لفته بفولارات حرير ، ومسحته بدهان معطر .

اقتربت منه ، ففاح عطرها في فضاء الصالة حتى غمرها بنفاذيته وانتشاره ، وفي تلك اللحظة قام الغريب من مكانه ليحييها بأدب ، ثم دخلت ابنة أخيها وقلبها ينبض بقوة ، فاندهشت حين رأت عمتها وقد تغيرت كلياً ، وحين رأت العمة دهشة ابنة أخيها ، توهج خداها من الخجل ، ولكي تتحاشى الموقف التفتت إلى الغريب ، وقالت :

- (نتناول الإفطار هنا في هذه الصالة) .

فغرت الفتاة فمها ، فطوال مكوثها في المنزل ، لم تتناول العمة إفطارها إلا في صالة الطعام .

تطلع الغريب إلى صالة الطعام ، كانت صالة الضيوف واسعة مفتوحة على صالة الطعام والستائر تتدلى موشاة بالرسوم التركية المذهبة ، بينما كانت الخزائن ممتلئة بالتحف الفخارية والأثرية .

- (أحب تناول الطعام أمام الوجاق . . وأنا أشعر بالدفء وأشم رائحة الخشب المحترق) .

قال الغريب وهو يتطوس في الصالة المزينة بالكرستال والأثاث المصنوع من السنديان ، فابتسمت العمة ابتسامة جذابة ، وحين استدركت أن زوجته لم تهبط بعد ، سألته بصورة مهذبة فيما إذا كان من الواجب أن ينتظر زوجته فقال :

- (لا . . لن تهبط الآن . . إنها تتأخر . . لن تستيقظ قبل العاشرة) .

**

بعد تناول التارتات المطعمة بالفواكه ، أسند الغريب ظهره إلى كرسي موشى برسوم مطرزة ، ملقياً قدميه المحتذيتين جزماً مبرنقة على رخام المدخنة الأبيض ، وبين آونة وأخرى كان يلقي بقطع من الخشب الرطب في الوجاق ، والبخار يتصاعد من فنجان قهوته المرصع بالمينا ، مختلطاً مع الدخان الأزرق الكثيف الذي يتصاعد من غليونه المصنوع من البورسلين ، وهو ينظر من خلال الشرفة المرخاة الستائر إلى مطر تشرين الوحشي .

كان المطر يتساقط مقذوفاً بقوة مثل موسلين أبيض شفيف في الحديقة ، كان يضرب زجاج النافذة الطولية المنشأة على طول الصالة من الجهة المقابلة للوجاق ، بينما كانت الحديقة المنسقة تنسيقاً هندسياً تنكشف من وراء الزجاج وقد فاضت بالمياه .

كان الغريب مستسلماً بعينيه الباردتين الناعستين لمطر تشرين ، وبين آونة وأخرى كان يتطلع إلى الصالة وقد أنارتها المصابيح الموضوعة

على الجدران .

كان الجالسون مستلقين على مقاعدهم يتنفسون بغبطة ، وبعد أن فرغت أقداحهم تناول الغريب مرة أخرى غليونه من المنضدة الصغيرة التي خلفه بحركات متثاقلة ، وملأه بتبغ أمستردام المعطر ، ثم غرق بسحابة من الدخان الأزرق القاتم ، فجأة انتفض بحركة سريعة من مكانه مستديراً نحو الخزانة المنضدة بالتحف الفخارية ، ليتناول تمثالاً نصفياً مصنوعاً من البرونز وأخذ يقلبه مبتسماً .

- (اللّه . . هذا التمثال الجميل . . كان في بيت جدتي بوران خانم . . تعرفينها طبعاً كنت تلتقين بها في حفلات القبول . . حفلات وداد السعدون) .

- (بوران خانم - عرفتها . . عرفتها . . بالتأكيد أعرفها . . ولكن وين . . ما أدري بالضبط . . ولكن كل شيء يبدو لي مألوفاً . . اسمها وحفلات القبول . . ولكن نسيتها . . هل تشبهك؟) .

- (قليلاً . . أنفها أكثر ارتفاعاً من أنفي . . فيه غطرسة) . وأعاد التمثال إلى مكانه . . (هل اشتريته منها؟) .

- (ربما . . كان والدي . . اشتراه ولكن ممن . . لا أدري . . أكيد من بوران خانم . . أكيد منها) .

- (نعم أكيد - هو قال - كانت قد أخذته من سيدة أفغانية كانت وصيفة لزوجة الملك محمد ظاهر شاه . . أهدته إليه وهي تبكي . . قالت لها : بوران خانم . . هذا كل ما تبقى لي من ذكرى في هذه الحياة الزائلة ، خذيه لن يحتفظ به أحد خير منك . . وقبل وفاة جدتي كانت قد باعت من الأثاث والأنتيكات القديمة الشيء

الكثير . . ربما كان والدك قد اشتراه منها . هذا فأل حسن . . . . في هذا البيت أشياء كنا نملكها نحن . . أما الآن فتملكونها أنتم . . أي بمعنى آخر . . أني أتنقل في أماكن تحتوي على الأثاث والأدوات ذاتها . . ولن أشعر بغربة في هذا البيت . . إنما أتنقل في أماكن مختلفة وأنا في منزلي) .

**

بعد لحظات قفز الغريب باتجاه الشرفة ، فتح النافذة ، فاندفع الهواء الرطب إلى الصالة الدافئة محملاً بالرذاذ وبرائحة السرو ، نظرت العمة إلى أشجار الحامض المغسولة بالمطر ، كانت فاكهتها تلمع وسط اللون الرمادي القاتم . فنهضت من مكانها باتجاه النافذة ، وتبعتها ابنة أخيها ، وأخذ الثلاثة يتنشقون الهواء الرطب وهم يبتسمون أمام الحديقة المغسولة بالرذاذ ، فقالت العمة للغريب :

- (لو هبطت زوجتك من حجرتها ، واستمتعت معنا بطقس تشرين من النافذة) .

- (لا . . لا - وهو يهز برأسه - زوجتي لا تحب الطقس . . زوجتي تحب الأزياء والطعام . . فقط . . مع أنها لا تأكل الكثير . . ولكنها تعشق ترتيب الموائد والسفرات . . وتحب التحديق بفساتين النساء . . في الحفلات . . وفي الأيام العادية تظل كسلانة في حجرتها . . تتزين وتتعطر) .

فغرت الفتاة التي وقفت أمامه يمين عمتها فمها . . مندهشة من رجل يتحدث عن زوجته بهذه الطريقة التي تفتقر إلى التهذيب ، فأخذت العمة تضحك وهي تقول :

ـ (أمرك عجيب . . أنت تحب المزاح . . الحقيقة أنت لطيف) .
وانخرط الجميع بالضحك .

**

أغلقوا النافذة وتحولوا إلى ردهة الاستقبال . . إلى الصالة الدائرية حيث تتكوم القطة السوداء على الأريكة بعد أن نادت العمة سليمان الذي هرع بملابسة الهندية ليهيىء ثلاثة كراسي عليها طنافس حريرية مطرزة بخيوط ذهبية ، قبالة الوجاق الصغير المزين بالسيراميك في الحجرة المطلة على الحديقة في الدور العلوي ، وهي تقول :

– (ربما سنتناول غداءنا هناك) .

– (هناك في الأعلى؟) قالت الفتاة مندهشة .

– (نعم هناك . .) قالت العمة (نكسر الروتين شوية ها اليوم) . ثم التفتت العمة نحو الغريب وقالت بصوت هادىء ، بينما كانت الفتاة تحدق في وجهه بانبهار :

– (أين التقيت زوجتك؟ . . هل هي تقربك؟) .

– (لا . . لا كان والدها يرافق والدي أيام خدمته في الجيش . . وبعد إحالته على التقاعد فتح والدي شركة تجارية في الدار البيضاء . . فاستخدم والدها معه . . وكانت نازك تزورنا مع أخواتها أيام العطلات . . مرة في حفلة كانت تسويها امرأة لبنانية من أصل فرنسي . . طلب والدي يد ابنته الوسطى – نازك – لي . . وفي اليوم نفسه قام صديقاي وطلبا يدي الأخريين . . قال الذي خطب الصغيرة . . رمضان ابن خديجة النقيب . . الذي كنت غالباً ما أختلف معه في كل شيء وكنا دوماً نتناقش ونتشاكس . .

- (أيها السادة . . هذه الطريقة الوحيدة التي تبقينا أصدقاء بعد أن قضينا حياتنا كلها نتناقش ونتشاكس) فبادر والدي وهو يقود واحدة بيده اليمنى والأخرى باليد اليسرى . . ويقود واحدة أمامه (معاك حق . . معاك حق) وشربنا نخب الخطوبة والصداقة . . والأخوات الثلاث معنا . . وفي تلك اللحظة صرخ شاب مدعو في الحفلة كان يحب أخت نازك الصغرى التي خطبها رمضان . . فاجتاحنا بعاصفة من عواصفه المعربدة . . ثم قلب الطاولات وأخذ يكسر الصحون . . فطردناه أنا وصديقي . . حملناه على اكتافنا وألقيناه في الخارج . . وكان الخدم في تلك اللحظة يلمون حطام الفرفوري بأعصاب باردة .

فغرت العمة فمها هذه المرة . . بينما انخرطت الفتاة بالضحك وكأنها تستمع إلى نكتة . ولما شعرت أن العمة والغريب ينظران إليها باستهجان دون أن يضحكا ، التزمت الصمت بخجل وقد احمر خداها ودمعت عيناها وكأنها على حافة البكاء .

**

هبطت زوجة الغريب بتثاقل ملقية على كتفيها جاكتة مصنوعة من الصوف الناعم برتقالية اللون ، وقد عقدت خصلات شعرها الأشقر بدبوس مطعم بالأحجار الكريمة ، وما إن بلغت المكان حتى قالت :

- (كم أكره هذا الطقس . . لا أدري لم يخيفني . . أنا أتشاءم منه) .

نادت على سليمان الذي هرع إليها مسرعاً وهو يحمل كرسياً هزازاً مطنفساً ووضعه قبالة الوجاق بين الجالسين الثلاثة ، وحين احتلت مكانها بينهم أخرجت من جيبها مبرداً وأخذت تبرد أظافرها الطويلة المطلية باللون الأحمر القاني .

- (كم هي باردة . . إشاه) . قالت بصوت عذب ، فالتفتت نحوها العمة .

- (ألا تأكلين شيئاً؟ . . هل أنادي سليمان ليعد لك المائدة؟) .

- (لا . . لا . . لقد ناديته صباحاً . . وتناولت فطوري في الحجرة . . سأظل هكذا حتى الغداء . . كم الساعة الآن؟) التفتت العمة إلى ابنة أخيها :

- (كم الساعة الآن؟)

- (لا أدري) قالت الفتاة (لم ألبس ساعتي اليوم . . نسيتها على خوان المرآة . . اعتمدت على ساعة الصالة) .

أدارت العمة رأسها نحو ساعة الصالة التي خلفها ، وفي الوقت نفسه التفتت امرأة الغريب إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثانية عشرة والربع ، ومن ثم وجهت كلامها إلى الغريب الذي جلس أمامها ساقاً على ساق وسألته :

(وأنت . . ما تلبس ساعة . . أبداً؟)

- (أنا ما ألبس ساعة . . أبداً . . لا علاقة لي بالزمن . . في السابق كنت أحتاج إليها . . ولكن الآن . . لا . . أنا في شهر عسل) والتفت إلى زوجته التي كانت منشغلة ببرد أظافرها مبتسماً إلا أنها لم تعر كلامه أي اهتمام .

وما إن أنهى كلامه حتى قالت العمة والفتاة وفي اللحظة نفسها :
- (صحيح . . أنت محق) .

**

كانت العمة والفتاة مثل صبيين ساذجين ، والغريب يتلاعب بهما مثل فنان ساحر ، كانت الجلسة الحميمة هذه قد وسعت فيهن بشكل مدهش حساً غريباً غير مألوف ، وقد شعرتا ، بعد أن لفحهن الوجاق بناره القصيرة المتلامعة ، بنشوة غريبة مثل حلم سعيد متقطع ، وكأنهن محمولتان على جناح هواء فاتر ، بينما كان للجلسة طابع فوضوي . كانتا تقبلان على الحياة بنشوة وتلهف ، فالمرأة الأربعينية ملهمة وعذراء تنظر نحو الحياة بحنان كثير ، لقد كانت الحياة المضيئة المعتدلة تظهر بمظهرين مختلفين ، وهي جالسة ، صامتة تشع عذوبة واستسلاما . كانت الحياة تنفلت منها تلقائياً لتتحول إلى حلم يتجه نحو أثير غامض ، وكانت الفتاة الصغيرة تنفجر لأدنى شيء خجلاً ، الخجل الذي يشكل الهوة بين التصور والفعل ، لقد كانت حساسيتها مرضية ، حساسية تنمو في النفس مثل هوة مظلمة سوداء لا متناهية ، إلا أن الغريب كان يتحدث ، وشهوته تتضاعف ، وحين صمت ، سألته العمة :

- (أين نتغدى هذا اليوم؟ . . أنا أهتم بالمكان . . ربما يجعل من الغداء شيئاً استثنائياً) .

- (في الأعلى . .) هو قال (هناك في الأعلى . . أحب في الغداء تناول المحار . . والزيتون . . هل لديكم محار؟) .

- (لا ليس لدينا محار . . ولكن بإمكاننا تقديم روبيان البصرة . .

هنا كشك في بغداد يجلب الروبيان من البصرة . أكلنا مرة أو مرتين ، لذيذ فعلاً) .

- (روبيان أحمر . . أوه كم أحب روبيان البصرة . . كنت أشتاق لأكله وأنا في الخارج . . أريد الروبيان والنبيذ) .

- (ما عندنا نبيذ في البيت) قالت العمة وهي خجلة : (لا نتعاطى المشروبات الروحية . . لا . . لا يمكن) .

- (ولكن ما أقدر أأكل من دون نبيذ . . هل تلطفتم علي وأوصيتم السائق أن يجلب لي روبيان . . ونبيذاً) .

التفتت الفتاة إلى عمتها وكأنها تلومها :

- (ما هو الغلط عمة . . نحن نقدم لضيفنا ما يريده) .

قامت الفتاة من مكانها مسرعة ، لتأمر السائق بجلب روبيان ونبيذ ، فشعرت العمة بغيرة جرحتها في أعماقها ، وكأن الفتاة الصغيرة سبقتها في تلبية طلب الغريب ، وقامت بالأمر خيراً منها ، لقد شعرت بالفتاة تنافسها ، تنافسها في شيء ليس لها الحق فيه .

**

دخلت الفتاة مرة أخرى إلى الصالة مبتسمة :

- (أوصيت السائق أن يجلب نوعاً من النبيذ كان يشربه والدي ، يدعى كامبانياني) .

- كامبونياني . . أعرفه . . لا كامبانياني . . كم أحب الكامبونياني ، شكراً جزيلاً . أنت لطيفة معي .

فارتبكت العمة قليلاً ، نهضت من مكانها ، وسارت قليلاً لتفتح النافذة ، وبعد أن لسعتها نسمات الهواء الباردة المحملة بالرذاذ ابتسمت

ابتسامة حزينة أظهرت أسنانها البيض .

كان الصمت الذي تفيض به الصالة الدائرية يخلبها ، فتنبهت حين تحرك الغريب إلى جوارها برقة متناهية وأخذ كلاهما ينظر إلى العالم المضاء المبلل بسكون ، كانت الأجواء في الخارج تتجه نحو الهدوء وليس هناك سوى الرذاذ الناعم الخفيف يحل محل المطر الوحشي ، فتنهدت العمة تنهدة قصيرة وهي تشم ماء الكولونيا الفاخرة المنبعثة من منديل الغريب المتدلي من جيب جاكتته ، والتفتت نحوه :

- (منديلك يفوح بعطر طيب . . أحب هذا العطر) .

تناول الغريب منديله الأبيض المعطر من جيب جاكتته وقال :

- (هذا المنديل اشتريته من الهند . . حيث كنا نلعب لعبة جميلة هناك . . لعبة شم المناديل) .

**

كانت الرياح الخفيفة تهب عبر النافذة المفتوحة ، باردة محملة بالرذاذ ، وفي تلك اللحظة انفتحت بوابة المنزل الخارجية على مصراعيها ، وانطلقت إلى الداخل سيارة الروزرايس الفضية بعجلاتها المذهبة المغسولة بالماء ، وهبط السائق منها بعد أن ارتدى معطفه الواقي من المطر ، بينما كانت طاقيته الحمراء على رأسه ، وأخذ يجتاز العتبات المنقوعة بسرعة حتى وصل إلى الباب الذي فتحه له سليمان ، فعاد الغريب إلى مكانه وتناول من معطفه المرمي على الطاولة الصغيرة غليونه الذي أشعله ، وأخذ يطلق نفثات خفيفة من الدخان الأزرق في الضوء الحاد ، وتبعته العمة إلى المكان الذي هو

جالس فيه ، بينما كانت ابنة أخيها تنظر إليهما والحزن باد على وجهها الشاحب اللوزي .

دخل السائق إلى الصالة نصف المضاءة ، والماء يقطر من وجهه المبلل بالرذاذ ، وبيده علبة زيتون خضراء مفتوحة ثم قال :

– (خانم . . ما لقيت غير هذا الزيتون اللبناني . . ماكو زيتون قبرصي) .

أخذت زيتونة واحدة من العلبة المفتوحة أمامها ووضعتها في فمها ثم بصقت النواة في يدها التي ترتدي قفازاً أبيض ، وصاحت بالخدام هيئوا المائدة في الدور العلوي .

كانت الحديقة المبللة مختنقة بالضباب الخفيف ، ومصابيح الغاز مشتعلة فوق أعمدة سياجها ، تنير المماشي التي ترتعش تحت سكون السماء الباردة الملبدة بالغيوم ، بينما كان على العتبات أوراق الحامض وبقايا البرد الذائب المتلامع ، وفي أعماق السماء أسراب الطيور السود المهاجرة .

قامت العمة مائعة وصعدت السلم وهي تنظر نحو ابنة أخيها بقلب متألم ، كانت الموسيقى الصداحة تتعالى في الأدوار العليا بلحن صادح ، وكان الجميع يتناقل أطباق الروبيان بآنية فضية وهو يفوح برائحة الماء المالح ، وفي الزاوية كانت القطة والدمية على الأريكة تتلاطفان بهدوء .

صعدت الفتاة بتنورتها التويد الضيقة – لتبدو أكثر رشاقة – كانت تصعد السلم بعينين حذرتين وهي تمسك غليونه البورسلين الأسود بيدها ، وتتنشق من فوهته رائحة التبع اللاذعة ، وحين رأته مع

عمتها اختنقت بكآبة صامتة ، في تلك اللحظة بالذات شعرت بنار الغيرة تحرق قلبها .

فاستدركت العمة نفسها وهي تقول بصوت عال :

- (يطيب لي أن أتدفأ على النار في مثل هذه الظهيرة الباردة) .

كانت ستائر صالة الحفلات في الدور العلوي مرخاة ، تكشف عن مشهد الحديقة من الأعلى ، بينما لاحت من بعيد سويقات الورود الجرداء ممحوة بضباب خفيف يتصاعد من المياه المارة تحت قبة القنطرة الحجرية ، حيث تهب الرياح الخفيفة نحو جذوع الأشجار المبللة .

جلست الفتاة وتناولت من الطاولة الكبيرة التي فاحت برائحة اللحم المتبل والزيتون ، ورائحة البحر المنبعثة من الروبيان الأحمر المالح ، صحناً صغيراً وأخذت تأكل بهدوء ، وهي تنصت لصوت الغريب وإلى ضحكه القصير الرنان ، وأخذت تضع الفراء الأبيض الدافىء بحرص كبير على كتفها وصدرها ، كانت نظرات الغريب تنتقل بين العمة وابنة أخيها ، نظرات متواصلة غير شبعى . قالت الفتاة :

- (لم لم تلتحق بنا حتى الآن زوجتك) . وهي تنظر نحو عمتها بعينين حادتين .

قالت العمة بصوت هادىء :

- (زوجتك تختلف عنك كثيراً . . هل أنتما متسجمان؟) .

- (لها فهم يختلف عن فهمي للحياة . . هي تعيش حياتها على طريقتها . . بأسلوب يختلف عن أسلوبي . . ما أظن أننا منسجمان ولا

مختلفان . . أنا لا أعقد الحياة . . أبداً . . ولا أبحث مع النساء عن الاختلاف والانسجام إنما عن أشياء أخرى تجعل الحياة متواصلة . . كل ما تعرفه نازك هو عن طريق مربيتها المغربية لما كانوا يسكنون في الرباط . . وهي لا تعرف عن الحياة شيئاً . . لا تعرف غير الطبخ ومجلات الموضة وأخبار السينما المصرية . . أما أنا فمختلف) نهض من مكانه مثل طاووس وسار بين المرأتين (. . صحيح أنا مو فيلسوف . . ولكن حياتي في الهند والصين زودتني بفهم خاص للحياة) .

– (هذه المرة الثانية التي تذكر فيها الهند ، هل زرتها من قبل ، لقد قلت لي إنك كنت تلعب هناك لعبة تلعب بالمناديل . . ما نقدر نلعبها . . طالما هي لعبة مثيرة . . كما تقول . . أنا متشوقة لمعرفتها) .

قالت العمة ذلك وهي تنظر نحوه بكثير من الحنان ، بينما بقيت ابنة أخيها ترمقه بهدوء .

– (طيب . . سأعلمكم هذه اللعبة . . ولكن علينا أولاً أن نعمل سهرة) .

– (سهرة . .) قالت العمة .

– (أوه سهرة . .) قالت الفتاة . نظرت العمة نحوها أولاً ثم حولت نظراتها نحوه وهي مرتبكة :

– (نسهر . . لا . . لا هذا مستحيل . . صحيح كانت الحفلات في منزلنا كل خميس ، ولكن بعد أن تغيرت الأحوال . . تخلينا عنها . . نسيناها . . لا . . لا مستحيل) .

– (لماذا تعارضين عمة . . لم لا نسهر . .) قالت ابنة أخيها

بتوسل (لم لا . . ما الغلط بالسهرة . . لا عليك سوف نسهر . .) وقد غيرت لهجتها بعناد وهي تنظر نحو الغريب متجاهلة عمتها .

- (واللّه أنت حبابة . . أني ممنون منك . . ولكن بعد موافقة عمتك . . طبعاً) .

وكأنه أراد استدراك ما فعلته ابنة أخيها . . أو أراد استدراج العمة .

- (طيب . . أنا موافقة . . هو آني أقدر أرفض لك طلب) . قالت وقد غيرت في الحال مزاجها ، وكأنها كانت تسابق ابنة أخيها في تلبية رغباته . فأدرك الغريب في التو تأثيره عليهما .

وفي الحال هبط الغريب درجات السلم مسرعاً وهو يقول :

- (سأدعو نازك للغداء . . هذا المكان أكثر دفئاً) .

وبعد أن ساد السكون في فضاء الصالة العليا ، التفتت الفتاة إلى عمتها وتبادلتا نظرات استنكار ، راحت العمة تتخطى في المدخل المظلم بعد أن شعرت بالبرد قليلاً يداهمها وهي تعتصر أصابعها الناحلة ، باحثة طويلاً في الظلام عن غطاء ، وحين تناولت زوجته الغداء ذهب الجميع لإعداد مستلزمات الحفلة ، لقد أحست العمة بالانتصار ، وهي تقوم نحوه ببادرة لطف آسرة ، وهو يستند بكوعه على إحدى الخزائن في الدور العلوي ، محيطاً إياها بعينيه الحادتين ، لقد سكرت العمة في المساء بفرحتها منتشية ، وقد بدا هذا الأمر للغريب مسلياً ، مسلياً ، أن يراها ترتعش من رأسها إلى أخمص قدميها أمامه ، وعلى سلم البيت حين كانا وحيدين أمسكت حائط المطلع من انفعالها الشديد ، فصعد إلى جوارها وفي يده شمعة مضاءة ، وكانت

يداها ترتعشان من الفرح .

- (الليلة نسهر . .) قالت العمة . (نسهر . . لا . . لن نسهر) قالت ذلك بصوت حاد كما لو أن أحداً يدعوها للقيام بعمل شائن ، وما إن أصبحت الساعة العاشرة ، حتى راودتها أفكار صخب وفرح .

(٤)

دخلت العمة إلى غرفتها، وقفت عند الخوان أول الأمر، ثم ذرعت الحجرة جيئة وذهاباً، جلست ثم نهضت، كانت تتلقى بشكل ساحر انعكاس الفرح الدائم القادم من مكان ما، وضعت كل شيء على الخوان، وبعد دقائق دخلت صالة الحفلة وهي ترتدي أبهى ملابسها.

وفي المساء المتلبد، كانت الموسيقى الناعمة تتعالى من الغرامفون الموضوع على صندوق أسود مطعم بالأصداف في الزاوية البعيدة، وقد أضاء المكان ضوء شاحب يلقي شعاعه على الأثاث الفاخر المصنوع من السنديان، وتدلت ثريات الكرستال الكبيرة من السقوف العالية، وبعد أن أضاءتها العمة اتضحت ملابسها الفاخرة وعقودها اللؤلؤية وهي تتلامع على جيدها الأبيض كجيد الوز، وقد ارتدت فستاناً طويلاً مخصراً على جسدها يكشف عن ساقيها العاريتين المخروطيتين بشكل ناعم، وقد عقدت شعرها الأسود الطويل بدبوس ذهبي مطعم بالألماز، بينما انسدل على ظهرها من الخلف الفراء الذي غطت به أكتافها العريضة العارية، وصدرها المكور المحصور من الأمام.

وفي تلك اللحظة استقبلها الغريب بخطوات رشيقة ليمسك بها من يدها ويقودها نحو المائدة ، لقد كان هو أيضاً يرتدي ملابس فاخرة :

بذلة من المخمل كحلية اللون بياقة صغيرة ، وقد تدلى من جيب جاكتته منديل أبيض يفوح بعطر طيب ، وقميص بياقة منشاة من الساتان عقدت بفيونكا حمراء ، وكان كل شيء يلمع فيه ، شعره المصفف بصورة أنيقة ، أحذيته الطرية السود ، والخاتم الذهبي في خنصره .

عطفت العمة ذيل فستانها الطويل وجلست على الكرسي الموضوع أمام المائدة ، وقد كانت جد منفعلة . دخلت الفتاة إلى الصالة وهي تتحرك طليقة من الفرح كالطاووس ، كانت ترتدي هي أيضاً ملابسها الفاخرة ، معتمرة قبعة وردية في طرفها ريشة طويلة ، إلا أنها أجهدت نفسها لتكون ملابسها مثيرة مغرية ، مما جعل العمة ترمقها بكثير من الريب والهواجس ، وحين انضمت إلى الحفلة الصغيرة ، هيمن على العمة حزن لا يخمد لفكرة طرأت للتو على ذهنها (ربما تخلت هذه الفتاة عن كل المثل ، المثل العائلية والقيم ، بمجرد ظهور غريب في منازلنا) .

لقد حمي جسدها للتو من هذه الفكرة الغامضة وأخذت تخرج منديلها الأبيض لتمسح قطرات العرق التي تجمعت على صدغيها وتعيده إلى جيبها ، وفي تلك اللحظة نادى الغريب على زوجته التي خرجت مائعة دون اكتراث ، بملابس قد رأتها العمة (ملابس عادية) وأيضاً (لا تليق بسيدة من عائلة كبيرة في سهرة مثل هذه السهرة) .

إلا أن زوجها داعبها بكلمات رقيقة ناعمة دغدغت مشاعرها ، وإن كانت تتظاهر بالإهمال وعدم الاكتراث . وحين التقت نظرات العمة بنظرات ابنة أخيها تبادلتا نظرات استنكار ، إلا أن العمة ظلت تحدق بقوة بوجه الفتاة وفي داخلها لوم وتوبيخ أحستهما ينطلقان بقوة من هاتين العينين السوداوين ، فاحتقن وجهها خجلاً حتى كادت تتصبب عرقاً ، وشرقت بعبرتها ، فحولت العمة نظراتها إلى الغريب الذي أخذ يتحدث مع زوجته بصورة مهموسة .

كانت الطاولة المصنوعة من السنديان تتوسط الصالة أحاطتها شمعتان طويلتان قد انعكس شعاعهما الأصفر الليموني الشاحب على الأواني الفضية المزخرفة والأكواب البلورية المضلعة ، وقد رصفت المناشف البيض المقطعة على شكل مربعات إلى جانب الصحاف على طول الطاولة ، قرب الأطباق ذات الحواف العريضة التي صففت فوقها الفاكهة الكبيرة المغسولة بعضها فوق بعض على شكل طبقات .

وقف سليمان كأيام خدمته الأولى للعائلة العريقة في وقت كانت تعقد فيه الحفلات كل خميس على شرف الوزراء والسفراء ونواب البرلمان في هذه الصالة الكبيرة ، وقد ارتدى ملابسه القديمة ذاتها التي احتفظ بها في حجرته في الدور السفلي ، الجوارب الحريرية البيض ، سرواله الكابردين ذي الكسرات ، وربطة عنقه الحمراء القانية ، وقميصه الموشى بالدانتيلا . كان سليمان يختال بفرح وهو يمرر بالطبق بين أكتاف الجالسين بوقار ، وكأنه يتذكر الأيام التي أهملت في ذاكرته ، وكأنه شعر للمرة الأولى برد اعتبار لنفسه ولقيمته التي ضاعت ، معلناً لنفسه وللجميع بصلاحيته كما كان للحفلات وليس

للعمل – كما هو عليه الآن – في المطابخ .

**

تناول الغريب سكيناً صغيرة حادة من جنب الصحاف الفضي المملوء بالفاكهة الطازجة ، وتناول تفاحة وأخذ يقطعها في يده ، ويلتهمها قطعاً صغيرة ، وبعد أن انتهى من أكل نصفها ترك النصف الآخر على الطاولة وأخرج منديله الأبيض الناصع من جيبه ومسح به يديه وفمه وتركه أمامه على الطاولة ، وتحرك نحو الغرامفون ليغير الأسطوانة وهو يقول :

– (هذه الموسيقى تحزنني . . أريد أن أسمع شيئاً آخر . . شيئاً حميماً . . أريد محمد عبدالوهاب . . فكرة ممتازة . . أريد محمد عبدالوهاب . .) .

تحركت العمة نحوه وأخذت تقلب معه اسطوانات بيضافون الموضوعة في صندوق الغرامفون الكبير ، فتناولت الفتاة – مستغلة غيابهما – منديله بأصابع متسللة ، دون أن تلحظ ذلك زوجته التي انشغلت بتقشير برتقالة ، ووجهها إزاء النافذة .

رفعت الفتاة المنديل بأصابعها ووضعته على فمها وتنشقت رائحة عطر خفيف ممزوجة بعبير التفاح التي كانت قد علقت بيدي الغريب الساحرتين وبفمه ، ضغطت المنديل على شفتيها وأنفها وأخذت تتنفسه بعمق حتى كاد يغمى عليها ، وحين عاد بعد أن جار الغرامفون ، تناول الكأس المضلعة وزجاجة النبيذ المقعورة وصب لنفسه كأساً ثم أفرغها في جوفه ، وهو يترنم على صوت الغناء المنبعث بصورة حزينة من الغرامفون ثم أعاد ملأها ، وأفرغها ثانية ، ثم أعاد ملأها مرة

أخرى ، ثم احمر خداه بعض الشيء ، ولمعت عيناه ، وبدأ بالضحك ، فالتفت إلى العمة :

- (هاك اشربي . . جربيه على الأقل . . إنه خفيف لا يسكر) .

بدأ الجميع يصبون كؤوساً من النبيذ الأحمر البارد ، احمرت عيون المرأتين ، وأصبحت خدودهن وردية بسبب النبيذ ، فضحكت العمة ضحكات متقطعة وهي تحاول أن تمسح جبينها بالمنديل ، وأخذ رأسها يثقل شيئاً فشيئاً ، وحين مد يده البيضاء الناعمة في جيبه تذكر منديله :

- (أين منديلي؟) ارتبكت الفتاة وهي ترد له منديله ، فتنبهت العمة وحدجتها بنظرة مملوءة بالاستنكار ، وعند ذاك تذكرت وقالت له :

- (صحيح . . أما قلت لي إنك تعرف لعبة بالمناديل) .

- (نعم . . تلعب في شهر مثل هذا الشهر . . هذا الشهر كنا نسميه شهر المناديل) .

أخذ يضحك . . لقد سحره الانتباه الذي أعارته إياه ، واستولت على الفتاة الدهشة والقلق أول الأمر ، إلا أنه تناول قداحته الذهبية المطعمة بالألماز وأخذ يشعل غليونه المعقوف ، ففاضت رائحة شذية غطت سماء الصالة ، ثم قال :

- (سنلعبها بعد قليل . . ولكن في البداية سأشرحها لكم) .

وقبل أن يتكلم ، قامت الفتاة لتصب له كأساً من النبيذ المورد وهي تنقل عينيها من العمة إلى الزوجة ، فبادرت العمة من مكانها وتحركت إلى طرف المائدة وأخذت تقدم له الآنية المملوءة بالحلوى

والتارتات واحدة بعد أخرى ، وهي في غبطة وفرح ، بينما أهملت الزوجة إهمالاً كلياً ، كان هو يجلس ساقاً على ساق ، سعيداً بعينيه الجميلتين من جراء هذا الدلال .

- (هذه اللعبة تعتمد على الأنف) .

- (على الأنف؟) قالت العمة (كيف؟) . بينما فغرت الفتاة فمها وهي تحاول أن تتبعه .

- (نعم على الأنف . . نضع صندوقاً هنا على المائدة ، ونطفىء الأضواء ثم نقوم بوضع المناديل داخل الصندوق . . ونخلطها ليتعذر علينا معرفتها عن طريق البصر . . ثم يقوم كل واحد منا . . بشم المناديل ومعرفة أصحابها) .

انغمرت العمة بالضحك ، وكركرت الفتاة ، ثم قالت :

(لعبة جميلة . . أما صحيح عمة؟) .

نهضت العمة بسرعة لتدخل حجرتها ، وجاءت بعد لحظات قصيرة تحمل صندوقاً من المعدن مغلفاً بحرير وردي ناعم الملمس كانت تستعملة لتضع فيه المراود الذهبية والخواتم الثمينة ، ووضعته على الطاولة الصغيرة قرب المائدة وهرعت الفتاة لتجلب منديلها ، وبعد أن عادت وضعته في الصندوق مع المناديل ، وقامت لتطفىء المصابيح ، ولم يبق في الصالة سوى شمعة واحدة تلقي بشعاع لهبها القصير على الوجوه المترقبة لوناً ذاوياً .

جلس الغريب قبالة الصندوق مثل ساحر ، وأغمض عينيه بعد أن أدخل يده في صندوق المناديل الوردي اللون ، وكان الجميع ينظرون بوجوه سارة وفضول . كان الغريب متألقاً بوجهه المشرق وهو يطلق

ضحكه القصير الرنان ، وانتشل المنديل بحركة مفتعلة إلى الأعلى بيده وانفجر بعاصفة من الضحك أمام النساء المندهشات حتى دمعت عيناه ، ثم عطس ووضع المنديل على أنفه وشمه بعمق ، حتى كاد يختنق ، فلمعت عيناه وهو ينقلها بين الثلاث وصاح :

- (هَيْ . . منديل زوجتي . . منديل زوجتي نازك . . لا يمكن أن اخطئه) .

فغطست زوجته بالضحك . . بينما تراجعت العمة على الكرسي وهي تنظر في وجهه بثبات ، وقلبها يتأجج حين أبصرت البريق في عينيه السوداوين ، وأخذت زوجته تبتسم بكبرياء لنفسها وهي تتناول من المائدة تفاحة معضوضة ، فقام وأخلى المكان لزوجته التي أعجبتها اللعبة ، وحين مدت يدها ظل هو يبصرها بصورة مترقبة وأخرجت المنديل بسرعة وشمته ، وبالطريقة نفسها التي صاح بها قبل قليل صاحت :

- (هَيْ . . منديل زوجي) ، فضحك الغريب من الفرح وتناول المنديل ، ولكنه حين شمه وأمعن النظر فيه قال :

(لا . . لا . . هذا ليس منديلي) . وناوله إلى العمة التي قالت :

(نعم هذا منديلي) .

فنظر الجميع إليها بصورة مستنكرة ، ومدت يدها في الصندوق مرة أخرى ، وانتشلت منديلاً آخر ، وحين شمته ضحكت هذه المرة بصورة مؤكدة واثقة وقالت :

- (هذا منديلي . . منديلي . . لا يمكن أن أخطئه) ، وأخذ الجميع بالضحك ما عدا الزوج .

أخذت العمة مكان الزوجة ، وأخذت تمسح وجهها المحمر قليلاً أول الأمر ، ثم أدخلت يدها في الصندوق الوردي ، والجميع يراقبها بصبر بينما كانت أناملها تقلب المناديل بصورة هادئة ، وفتحت عينيها الذائبتين وانتشلت أحد المناديل ورفعته بصورة بطيئة إلى أنفها وكادت تغمض عينيها ، ثم نظرت إلى الرجل الغريب وهي تبتسم ابتسامة رقيقة ، وقالت بصوت خفيض :

- (هذا . . منديلك) فضحك الرجل بصورة مرتبكة وقال :

- (عظيم . . عظيم) . بينما قامت الفتاة مستعجلة لتحل محل عمتها ، وحين نهضت العمة ، جلست الفتاة أمام الصندوق ، ثم أدخلت يدها وهي ترقب الجميع بعينين متلاقطتين ، وسحبت أحد المناديل وحين شمته رمته بصورة عصبية على المائدة وقالت :

- (لا أعرف . .) ثم مدت يدها مرة أخرى وأخرجت منديلاً آخر ورمته بالطريقة نفسها على الطاولة وقالت :

- (لا أعرف . .) ثم مدت يدها مرة أخرى وأخرجت منديلاً آخر وشمته بصورة رقيقة ، لقد تنفست بعمق وقالت :

- (هذا المنديل . . وهذا العطر النفاذ الممتزج برائحة التفاح هو منديلك . . أعرفه . . أعرفه جيداً . . ولن أخطئه) فضحك الرجل ضحكاً عالياً ، بينما قامت العمة لتشعل الأضواء ، وفي تلك اللحظة أخذ سليمان يغني وهو في الدور السفلي لحناً هندياً حزيناً بصوته المتضخم وقد انتفخت أوداجه ، وكأنه ينفخ في بوق ، صاح الغريب :

- (أوه هذه أغنية أذربيجانية . . أعرفها) .

- (كيف عرفت؟) قالت العمة (صحيح . . إن خادمنا

أذربيجاني . . هل تعرف لغتها؟) .

- (نعم أعرفها . . مذ كنت أرافق عمي في تجارته للقطن والصوف اللذين كان يستوردهما من أذربيجان . . ومرة بقينا ثلاثة أشهر في سمرقند . . وأمام بيتنا مسجد كنت أروح فيه حيث علمني شيخ المسجد شيئاً من لغتهم) . فابتسم الجميع بود .

- (أوه سمرقند . .) قالت العمة .

- (لا بد أنك تحن للتحدث بهذه اللغة . . سأجعلك اليوم تتحدث بها) .

صاحت على سليمان الذي ما إن سمع صوتها حتى أخذ يرتقي السلم بسرعة بملابسه الأنيقة الزاهية ووجهه البارد البليد .

- (نعم خانم . . نعم خانم) .

- (تكلم مع سيدك بالأذربيجانية . . إنه يتقنها) .

قال سليمان وهو يبتسم :

- (شمامي تونين حرفي زنيم) .

فغر الغريب أول الأمر فمه ، وتجمد وجهه دون أن تهتز عضلة ، ثم أنزل غليونه على الطاولة الصغيرة التي أمامه وهو يهز برأسه .

ظل سليمان وهو ينتظر جواباً أي جواب ، والعمة تحدق بوجهه مندهشة ، ثم هيمن على الجميع صمت ثقيل .

- (ها . . لا بد أني نسيتها . . حتماً نسيتها . . لقد كان ذلك منذ زمان بعيد) .

التفتت العمة إلى سليمان وبصوت غاضب متهدج تقول :

- (اذهب سليمان . . اذهب إلى الأسفل . . الحق عليّ . . مرة

ثانية لا تسأل أسئلة صعبة . . هل فهمت . . لم نقل لك استعرض لنا براعتك) .

هرول سليمان إلى المطبخ بعد أن هبط السلم حتى كاد يسقط على وجهه ، وهو حائر لا يعرف أية أسئلة صعبة تتحدث عنها العمة .

- (لا عليك . . ربما نسيتها . . لو كان هذا الخادم قد سألك سؤالاً بسيطاً كان تذكرت) .

- (نعم . . نعم . . هذا الخادم سألني سؤالاً صعباً) .

لم تكن العمة ترد رغبة على شفتيه ، كانت تتملكها رغبة تلبية رغباته كلها وبصورة مفضوحة ، وقد كان الغريب ، يتمتع بصوت جميل ذي طبيعة رقيقة قادرة على الإقناع بصورة هادئة ، وحين كان يتحدث يترك أثراً مشعاً على وجوه الجميع .

أخذ الغريب يسرح أبصاره في الصالة الواسعة ، فوقع نظره على كتاب ملون الغلاف مرمي على الأريكة ، فأثار فضوله ، في البدء حافظ على هيئته الوقور إلا أنه سرعان ما تناول الكتاب بانفعال وأخذ يقلب صفحاته ، فخفضت العمة رأسها قليلاً وانتظرت تعليقه ، إلا أنه بدأ بقراءة بعض جمله وهو يقهقه بضحكات قصيرة شبه مكتومة وبأسلوب ساخر :

- (أهذه قصة حب؟ . . من يقرأ فيكم قصص حب؟) وأخذ يتنقل بنظراته المشككة بين العمة وابنة أخيها .

- (أرى كثيرين يقرأون قصصاً ، ولكني غير مقتنع . . ما الذي تعلمنا إياه القصص . . ونحن نعيش حياتنا مثل قصة) .

- (أنا أتعلم منهـا الكثـيـر . . مع احـتـرامي لرأيك . . أنا أرى أن المسألة تعتمد على طبيعة حياة كل واحد . . فأنا انظر إليها من منظار مختلف . . كل الأشياء في النهاية لا أهمية لها . . وفي النهاية لن يكون أي عمل أقوم به أهم وأنفع من قراءة القصة . . وبعد ذلك أعتقد نحن نقرأ حتى نتسلى قبل أن نموت . .) .

- (ليس الذي يقرأ فقط إنما الذي يحيا حياة مرح أيضاً . . مو صحيح؟ . . أنا ما أريد أموت بسرعة . . علي أن أعيش حياتي ببطء وتلذذ . . علينا أن ننسى الموت . . إذا تذكرناه يتذكرنا هو أيضاً . . علينا أن ننساه . . وحين يأتينا فجأة يكون تفكيرنا فيه قصيراً ونموت) .

لقد فرحت الفتاة كثيراً بهجوم الغريب على القصص ، وترك كلامه على وجهها أثراً مشعاً ، وأخذت تنظر نحو عمتها بارتياب .

- (لا . . وما علاقة القراءة بالموت . . أنا كنت أقصد بما قلته أنها تجعلنا نحيا في مكان آخر أي نبحث عن مكان بديل . . مكان آخر) .

قالت العمة ذلك بينما كانت الصالة دافئة دفئاً حميمياً ، وتنبعث من الأثاث رائحة اسبرتو نفاذة .

- (لا . . لا لست معك في هذا . . لقد جربت القراءة مرة . مرة واحدة في حياتي . . كان خالي الذي يقرأ كثيراً هو الذي أقنعني . . وأنا كنت مراهقاً في ذلك الوقت . . ولكنني شعرت بعد أن قرأت كتاباً أو كتابين ، بأني أفضل لو أشنق نفسي ، وشعرت برغبة أن أرمي نفسي تحت قطار . . لا أدري ما الذي حدث ، ما عدت أتذكر ، بل صرت مثل المجانين ، أحتقر الجميع وأحس بأني أحيا بين حيوانات ، والموت أفضل بكثير من هذه الحياة العديمة الأهمية . إلا أنني سرعان

مـا عـدت إلى عـقلي وتركت الكتب ورجـعت أعـيش حيـاتي بلا مبالاة) .

حـدقت العـمـة طويلاً في وجـهـه ، كـانت في عـينيـه نظرات قط وحـشي أطبق عليـه فخ . بينمـا تثـاءبت زوجـتـه بملل واضح ، وهي تستأذن الجميع لأنها تشعر بالنعاس ، وحين التفتت الفتاة رأت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل . فصرخت في وجههم :

- (السـاعة الثـالثـة . . مستـحيل . . كيف يمكن للوقت أن يكون بهذه الخفة . . لا أصدق نفسي كأنه شيء غير معقول ، شيء غريب حقاً . .) .

- (نعم . . الوقت يسرع في لحظات الفرح والنشوة . . ويثقل حتى يصـبح أثقل من الحجـارة في الأيام الرتيـبة العـادية . . كـأن السـاعـة كذابة) . هكذا قالت العمة وهي تنظر إلى ابنة أخيها المندهشة .

- (واللّه عجيب عمة فعلاً كأن الساعة كذابة) .

- (نعم هي لا تستطيع قياسه . . بل الآلة الحقيقية لقياسه هي النفْس) .

نهضت الزوجة متثاقلة نحو حجرتها وتبعها الزوج مستأذناً أيضاً ، بينما نادت العمة على سليمان ليطفىء الأضواء ودخل الجميع إلى حجراتهم ، ومن بعيد كانت الصفارية تصرخ ، والحراس يسيرون بجوار سياج الحديقة يحملون الغدارات والفوانيس الملتهبة .

(٥)

حين نام الغريب وزوجته نوماً هادئاً ، بقيت العمة تتقلب في الفراش الدافىء الوثير شيئاً من الوقت ، ثم نهضت نصف نائمة ، وانتعلت صندلها المرمي بالقرب من السرير وهي تحمل الشمعدان الفضي ذا الشعل التسعة وهبطت السلم بهدوء بعد أن وضعت على رأسها إيشارباً بنياً ، لفت به جيدها ورمت طرفيه على كتفيها .

لقد هبطت إلى الدور السفلي بهدوء كبير إلا أن سليمان سمع صوت حذائها وهرع من حجرته السفلية جوار المخزن ، بروبه الأصفر معتمراً طاقية صوفية . وقد حمل عنها الشمعدان وراح وراءها .

أخذت العمة تتأكد بنفسها من إغلاق النوافذ والأبواب والصنابير ، إلا أن ذلك الأمر لم يكن هو ما يشغلها حقاً إنما كانت تخفي أشياء لم تكن هي نفسها تدرك سرها ، وكأنها تبحث عن شيء آخر وهي تدخل جميع حجرات المنزل في الدور السفلي ، ثم صعدت السلم ثانية ببطء شديد وبجوارها سليمان الذي يحمل الشمعدان بينما بدت العتمة من وراء الزجاج مختلطة مع الضباب الثقيل ، ولدى صحن السلم كانت ابنة أخيها وقد ألقت على كتفها روبها

الأصفر تنظر شقية إلى عمتها وباستنكار ، لقد خمنت شيئاً بالشيء الذي خمنته عمتها وهي تبحث في غرف المنزل وردهاته .

لقد أدركت الفتاة ذلك في نظرة عمتها ، ثم أطرقت لتحدق بذبول في خاتم يدها الألماز وتحركه بلمسات جافة ، بينا بقيت العمة بوجهها الجامد تتجاهلها وهي تدخل حجرتها برفقة الخادم الذي وضع الشمعدان على المنضدة ، وهبط السلم بخفة ، فدخلت الفتاة حجرتها لتنظر من نافذتها العالية رياح الزوبعة الجاثم ببرود دون أن تتحرك عضلة واحدة في وجهها الخابي ، وهي مختنقة بعاطفة صامتة ، وانطفأت أنوار المنزل تدريجياً ، حتى أعتم تماماً ، ولاحت من بعيد أصوات الصفارية ونباح الكلاب السلوقية في الحديقة .

**

في منتصف النهار استيقظ الجميع على نور الشمس الليموني الذي تخلل الستائر الثقيلة ، وأخذ سليمان يرتب في الأسفل المائدة ، هبطت العمة على السلم المرمري وهي تنظر إلى الستائر المرخاة وهي تكشف عن دخان الظهيرة الأزرق الباهت ، ثم تلتها الفتاة وكأنها في يوم جنائزي حزين مفتقدة عتمة الأيام التشرينية الباردة . . ومن بعيد كانت ترتعش نيران المنازل البيض الواطئة في الحدائق الهادئة . ثم هبط الغريب ومعطفه الأسود ملقىً على كتفه ، يبتسم ابتسامة ناعمة .

– (أوه ما أجمل الطقس . . كم أحب شمس الشتاء الباهتة) .

بينما كانت العمة تنظر نحوه وهي تقول في نفسها (سأغفر له كل شيء . . ما أعظم سلطانه على قلبي) .

كان الشعاع ينحدر على اللبلاب الأبيض ، وحين خلع معطفه

ليرميه على الأريكة القريبة ، هرعت المرأتان - العمة وابنة أخيها - في وقت واحد ، لالتقاطه ووضعه على الأريكة ، بينما هرعت العمة لتجلب له الكرسي المنجد ذا المساند العالية ، هرعت الفتاة لتأخذ غليونه من جيب معطفه مع علبة التبغ وتهيئه له على المائدة ، بينما كان سليمان يهرول وبيده الصينية الفضية التي تحمل الطعام وهو يرصف الصحون والملاعق والسكاكين والشوكات الفضية . هبطت الزوجة منطوية على سرها ، تضوع منها رائحة البودرة النفاذة والكريم المنعش ، وفي اللحظة التي وصل فيها الثلاثة طاولة الطعام كانت هي أيضاً قد أدركت المكان ، وأخذوا يأكلون بانتشاء ومرح كبيرين .

نهضت العمة من مكانها لتفتح النافذة .

- (أحب هبوب الريح إلى الصالة في الأيام المشمسة) .

هبت ريح عطرة ، قذفت بها الأشجار المخضلة الكثيفة المائلة على النوافذ ، كان الشعاع الباهت يلقي شعله الأرجوانية على الأثاث القديم اللامع ، وكان الظل المعتم يتكاثف بين الزوايا .

- (عندي فكرة . لم لا نخرج للحديقة لنتمشى تحت شعاع الشمس؟) .

- (فكرة رائعة . . فكرة رائعة . . أليس كذلك؟) والتفت إلى زوجته . لم تنطق الزوجة مطلقاً وهي تنظر نحو النوافذ مبتسمة لنفسها ، والهواء العذب يحرك الريش الأصفر الملقى على الأريكة .

- (كم أحب شمس الشتاء . . باهتة وعذبة . . سأبلغ سليمان بأن الغداء في الحديقة هذا اليوم . . نأخذ خروفاً ونشويه في الهواء الطلق) .

- (آه . . أحسن فكرة . . سنجهز العدة . . سليمان . . سليمان . . تعال لتخبرك عمتي بما تريد . . تعال بسرعة) .

**

أخذ الأربعة يتنزهون في ممرات الحديقة الدافئة المستحمة بالشعاع ، كانت الدماء قد بردت في عروقهم تقريباً ، وهم ينظرون إلى الأكاليل المشدودة الأغصان ، ثم ركضوا خلف الثعلب الذي جاء يتشمم سياج الزعرور .

قفز الرجل وهو يكركر عالياً ، ونسيت العمة نفسها وركضت خلفه بينما سبقتهم الفتاة بنشاط جسدها الفتي لتمسك بيده وتهب راكضة بقوة واندفاع شديدين . كان الجميع يركض ويضحك إلا الزوجة ، انشغلت بمراقبة ساعة البرج خلف المتنزه في الضاحية القريبة من المنزل ، وقد حطت عليها الغربان السود وهي تزعق بصوتها المدوي .

أخذ الأربعة يشوون الخروف المتبل الصغير ، ورائحة الشواء تعبق بالحديقة بشكل ثقيل ، وهم يتبادلون الأدوار في تدوير كتلة اللحم على النار ، كانت العمة أكثر نشاطاً وفرحاً ، لقد شعرت شعوراً سرمدياً لا يقاوم بأنها فتية على نحو عجيب ، وكانت ابنة أخيها ترمقها بغرابة واندهاش :

- (ما الذي حدث لعمتي؟! لقد كانت باردة فيما مضى بلا قلب ، ومتكلفة ، وقد بدت على مدى السنوات التي عشتها معها ، تعيسة ، مثيرة للإشفاق) .

**

دارت الأطباق على الجميع ، وأخذوا يأكلون ، كانت الظلال اللزجة ترتسم عبر النهر ، والضوء المنساب يجري بين أشجار الحامض المبللة ، والجميع يتناولون المشروبات الباردة بينما الهواء يهب محملاً بالعبير . ثم جاء الغريب برقة ليأخذها من ذراعها ويسير معها ، كانا ينظران بهدوء إلى العالم المضاء ، فتنهدت تنهدات قصيرة . لقد كانت الأجواء الجميلة تشعرها باليأس ، وبحزن كبير لأن كل شيء خالد في الطبيعة وسيخلد تحت الشمس أما هي . . فلا .

ارتقت الفتاة السلم ، والعذوبة الطرية التي تسكنها تشع من عينيها السوداوين الواسعتين ، وحين التقت عمتها على الصحن المرمري الواسع هابطة من حجرتها لم تسلم عليها ، بل اندفعت مسرعة إلى حجرتها خفيضة العينين وهي تبسم ابتسامة رقيقة لنفسها ، وكأنها قد أفعمت بالذرائع ، الذرائع التي كونتها خواطرها الفتية عن هذا الرجل الذي اقتحم في ليلة عاصفة هدأة المنزل ، الذرائع التي كونتها خواطرها المراهقة عن وجهه ، وصوته ، وصمته ، وضحكاته القصيرة الرنانة ، ثم عزلتها عن جميع الناس ، فما عاد في نظرها الآخرون الذين تفصلها عنهم مسافة الحب ، سوى أعداء وبرابرة ، وما عاد هناك سواه .

**

لقد أدركت العمة إدراكاً مطلقاً في تلك اللحظة ، أن ابنة أخيها مسجونة في سرها ، وأن هذا السر لن يعرّى إلى الأبد ، ولن يصل أحد مهما كان إليه .

(لم تزاحمني عليه؟ . . إنها تنافسني . . هذا ليس عدلاً . . لا

أحرمها حقها . . ولكنها شابة . . وستجد غيره . . ولكن أنا . . من أين . . كم أشعر باليأس ، تلك القوة الغالبة لنفسي) . هكذا قالت في نفسها .

أخذت تسير في الصالة الهادئة هدوءاً كاملاً ، كانت أصوات كعب الحذاء ترن بصلابة على المرمر البارد ، كما لو كانت - وهي ترفع رأسها إلى أعلى - على عتبة اكتشاف عظيم ، كانت تمسك بعقد من الأصداف القديمة على الخوان البني اللون ، المضلع الزوايا ، معقوداً بحجارة من المرو صفراء قانية ، مصبوبة بهيئة قلب .

كانت العمة وهي تمسك بالعقد بقوة تتحقق من افتراضها ، كانت راجفة القلب وهي تتطلع حالمة بمعجزة أو متذكرة حلماً قصيراً متقطعاً ، لقد كانت أعماقها تتجه نحو انشطار النور ، ولا تسمع من تلك الأعماق سوى دوار واحد هو دوار الحب . . دوار اشتهائها للذوبان في شخص آخر .

كانت تشعر بالوقت وهو يمر بسرعة ، وما زالت تبحث عن شيء ثمين في ركام حياتها الأسود ، والأرض لا تدعم تصلبها ، بينما هي تحاول أن تنطلق في الهواء ، كانت تسمع دون دهشة منها تلك الأنة الخفية للحب وما يكونه من إطار عجيب للعبة رحبة من الأحقاد والأفراح ، كانت تسمع تلك الصرخة المديدة الحادة التي تطلقها بصمت كلما رأته يلاطف ابنة أخيها ، وفي تلك اللحظة دخل الغريب وقد فاحت منه رائحة زيت الشعر المعطر ، وهو يحمل في يده أفعى محمولة على غصن من نبات الخوخان ، فصرخت العمة في وجهه مرتاعة وهربت ، فأخذ هو يضحك منها بصوت عال ، بينما هبطت

ابنة أخيها من الأعلى مسرعة ، ودخلت زوجته من الصالة الأخرى وهي تداعب القطة ، والأفعى الصغيرة المبقعة تتلوى على نبات الخوخان ، ثم أخذها إلى الحديقة وهو يضحك من كل أعماقه . كان البرد يشتد في الحديقة والغيوم تتكاثف شيئاً فشيئاً ، خرج والفتاة تتبعه حاملة صندوقاً زجاجياً ، قالت :

- (سنحبسها في هذا الصندوق) .

- (تعال يا قاهر الأفاعي) . قالت العمة .

(نعم الرجال يسجنون الأفاعي في صناديق الزجاج . . من أجل النساء . . والنساء يسجنَّ الرجال في قلوبهن من أجل الأفاعي) .

وأخذ يضحك وينادي على زوجته .

- (تعالي أريك كيف حال الأفعى في الصندوق . .) إلا أن زوجته لم تبال بالأمر وعادت لتدخل إلى المنزل غير مكترثة وهي تبتسم .

أخذوا صندوق الزجاج بأيديهم ودخلوا الصالة المضاءة وهم يرتجفون من البرد ، ثم أشعلوا الوجاق وجلسوا قبالته . قالت العمة وهي تحدق بالأفعى الخامدة في قاع الصندوق الزجاجي البارد :

- (لا تتحرك . . لماذا لا تتحرك؟ . . ولا تتلوى . أليست أفعى؟) .

- (أوه لا تتحرك الأفعى في الشتاء . . البرد سبات . تصبح مثل الخشبة رطبة) . قال الغريب وهو ينظر نحو الأفعى الساكنة . وحين وضعوا الصندوق على الخوان المقابل للزاوية البعيدة في الصالة الدائرية ، كانت العمة قد تحركت نحو النافذة وأخذت تنظر نحو السماء التي أخذت تنث رذاذاً خفيفاً متواصلاً ، فجاء الغريب نحوها

وأخذها من يدها ليسير معها في الصالة الدافئة المشعة ، ربما أحست وهي تسير معه في صالات المنزل ، أنه في أسوأ أحواله ، لعله شخص لا يطاق ، لا يحتمل ، زير نساء ، ولكنه في أروع ما يمكن في تعامله مع امرأة ، وكأنها شعرت للمرة الأولى في حياتها بهذا الشغف الذي يهاجم وبشكل مباغت كل أوتار القلب .

- (عندي فكرة . .) قال الغريب بعينيه الجريئتين ، ونبرة صوته الإفسادية .

- (ما هي؟) قالت العمة .

- (أنا موافقة) قالت الفتاة قبل أن يعلن عن فكرته ، وهي تضحك بصوت عال .

- (أنا غير موافقة . .) قالت زوجته وهي تمشط شعرها على مرآة الخوان ، مبتسمة ابتسامة هادئة وهي ترمقهم بطرف عينيها .

قال بصوت منخفض وهو يتنهد مغيراً لهجته :

- (نأخذ السيارة ونتجول في الشوارع بلا هدف تحت الرذاذ البارد) .

- (فكرة رائعة . . فكرة رائعة . . سأجلب المظلات والمعاطف المطرية . . هيا . . هيا) .

- (نزهة بالسيارة . . يا ربي . . لم أخرج من المنزل منذ سنوات) . قالت العمة وهي تبتسم مترددة .

- (ما الضير؟ . . لن نتأخر . . سأجلب قفازاتي ومعطفي أيضاً . . ألا تأتين معنا نازك؟) ملتفتاً إلى زوجته .

- (لا . . لا أحب التنزه تحت المطر . . هذه أفكار مجنونة . . لا

يعجبني ذلك . . لا أشعر بمتعة حين يتبلل شعري) .

**

صعد الثلاثة درجات السلم المرمرية بسرعة فائقة ، ضاحكين من الفرح ، وبعد دقائق قليلة أمضوها في حجراتهم الموصدة الأبواب ، خرج الثلاثة ينادي أحدهم على الآخر ، مرتدين معاطف مطرية وقفازات ويحملون المظلات المطرية الملونة . توجهوا نحو الباب الخارجي وقد توقفوا قليلاً في الصالة . كانت زوجته وحدها تمشط شعرها الأشقر المنسدل على الأكتاف ، وتحدق في المرآة إلى عينيها الخضراوين الباردتين ببلاهة ، وبعد أن غادروا الصالة إلى الخارج ، أمرت سليمان أن يهيىء لها الشاي المعطر بالهيل وطبق التورتات المطعمة بالفاكهة .

**

هبطوا درجات المنزل القرميدية الثلاث ، كانت مغسولة بمياه المطر الخفيف ، وقد كشفت عن لونها البني القاتم وهي تنحدر نحو مماشي الحديقة المبتلة ببلاطاتها الملونة باللونين الأحمر القاني والأصفر الفاقع . كان الآس المزهر المقصوص بعناية فائقة يحيطها على شكل مكعبات من جميع الجهات يصل حتى البوابات الحديدية الثقيلة . لقد كان الرذاذ المتناثر بخفة يتطاير في الهواء أثناء هبوطه المتواصل من الغيوم الواطئة وهو يغسل ببرودته أغصان الأشجار الشائهة في الهواء المثلج ، ويهبط من أوراقها الخضر السميكة المحززة ، على شكل قطرات بلورية كبيرة .

كان الثلاثة يتضاحكون من الغبطة وهم يتدافعون ببهجة تحت

هذا الاحتفال السماوي البارد . كانوا يحملون مظلاتهم الحمر المبقعة باللون الليموني ويرتدون القفازات . خلع الغريب قفاز يده اليمنى الأسود ، وناوله للعمة التي خلعت قفاز يدها اليسرى - الأبيض - وناولته للغريب ، ثم خلع قفازه الأسود من اليسرى وناوله للفتاة التي خلعت قفاز يدها الأصفر وناولته للغريب - لم يرتد القفازات التي أهدتها المرأتان لأنها كانت أصغر من حجم يده - بينما ارتدتا قفازين أكبر من حجم أيديهن . صرخ الغريب بصوت عال وهو يطلق صوته الرنان في الهواء :

- (إلى الروز رايس الفضية) فهبت ريح قصيرة ، وقوية ، أطارت المظلة الحمراء الفاقعة من يد الفتاة الطرية الناعمة ، وألقت بها في الماء الضحل ، فغرق الجميع بالضحك وهم يتوقفون عند بركة الزنابق ، بينما هرعت الفتاة مسرعة لجلب مظلتها التي غطست أطرافها في الوحل البارد عند شجرة السدر المنيفة العالية . وقد تساقط الرذاذ الخفيف البارد على وجهها المدور الملون ببودرة السوسن الزاهر ، وعلى شعرها الأسود المنسدل على الأكتاف العريضة ، وحين لحقت بهما وهي تشرق بضحكتها ، ركض الثلاثة إلى سيارة الروز رايس الفضية المتوقفة بهدوء قبالة الأفاريز المعدنية الحمر المحززة ، الأفاريز التي تظلل الشرفات العريضة المرخاة الستائر ، وقد كانت ترشح بالماء .

**

استقلوا السيارة بسرعة بعد أن أغلقوا مظلاتهم ووضعوها في صندوق السيارة ، كانت كركرات ضحكاتها العالية وصراخهم يسمع من بعيد .

تصاعد الدخان الأبيض المتكاثف خلف السيارة بهيئة دفعات منتظمة ، بعد أن دار محرك السيارة بصوته المكتوم بسرعة . خرج الحارس الأشيب الشعر من جوسقه الخشبي جوار سياج الزعرور ، مرتدياً معطفه الأخضر الكابي ، وطاقيته الليمونية المحززة بعد أن وضع طشاريته البرتا على كتفه . فتح البوابة الحديدية الثقيلة المقفلة بالسلاسل الضخمة التي صرت صريراً خافتاً في الفضاء المبلل . اندفعت سيارة الروز رايس الفضية من خلال البوابة المفتوحة على مصراعيها إلى الشارع الرئيس المحاذي للعطفة الجانبية التي كانت معبدة بالإسفلت ومرصوفة بالحصى الكبير المغسول بالماء ، كانت قد تناثرت عليه أوراق الشجر الليموني المتساقط من الأشجار العملاقة على طول الشارع ، بعد أن أنارته المصابيح العالية بضيائها الحاد تحت الرذاذ القصديري المتقاذف بقوة .

أخذت السيارة تشق طريقها عبر شبكة الشوارع التي تنحدر نحو (أرخيتة) المزدحمة بالمحلات والحوانيت والمطاعم الراقية ، كانت البارات وبوتيكات الملابس ومخازن العطور ومحلات البقالة والتوابل والفواكه الطازجة جنباً إلى جنب ، بينما كانت أكشاك الزهور تشع بأنوارها الليمونية الصفر وسط الفضاء الرمادي القاتم ، وعلى جانبي الشارع الواسع المقطع بالأشجار كانت البنايات العملاقة المشيدة بالأسمنت والفولاذ شائهة في الفضاء ، كانتُ أنوارها الساطعة تشع من شرفاتها الألمنيومية العالية ، بينما ظللت واجهات حوانيتها المظلات الحمر الممتدة التي تتلاحق على طول الشارع ، ومن أعلى باراتها ومطاعمها وأكشاك زهورها المتلاصقة بعضها مع بعض ، كانت

الأنوار الملونة تسطع حتى تصل الساحات الواسعة الفسيحة المعبدة بالإسفلت والمزدحمة بالسيارات .

كان السابلة يهرولون بسرعة قادمين من الساحات المزدحمة القريبة ، النساء يرتدين المعاطف المطرية الفاقعة ، ويمسكن بالمظلات المنشورة الملونة ، والرجال يرتدون المعاطف الكامدة الألوان ، ويمسكون بالمظلات السود منشورة على رؤوسهم ، وكان بعضهم يحتمي بالأفاريز المعدنية ومظلات الحافلات المنتشرة من مكان إلى مكان ، وكانت مصابيح سيارة الروز رايس الفضية تكشف بأنوارها الساطعة الشديدة ، مشهد الشارع بإشعاع لم تألفه العمة من قبل .

**

قبل أن تنعطف السيارة التي كان يستقلها الثلاثة وهي تسير سيرها الهادىء تحت المطر ، متجهة نحو الشارع الواسع المبلل المحاذي للنهر ، كانت هنالك سيدة طاعنة في السن ، تحاول وهي مترددة عبور الشارع قبل المنحدر ، وقفت حائرة بشعرها الفضي الذي عقصته بشرائط سود ، وبملابسها الصوفية السميكة ، وقد ارتدت جزمة بنية تصل إلى الركبة ، وكلبها الأبيض المبلل بالماء يسير خلفها .

كانت السيدة تحمل في يدها سلة من الخيزران مملوءة بالفاكهة الطرية الناضجة ، توقفت السيارة لتسمح لها بالعبور ، ابتسمت العجوز ابتسامة طفيفة إلى سائق السيارة وهو يضحك ضحكاته العالية بعد أن أطلق كلبها الصغير نباحه باتجاه السيارة بصوت فاجع .

ضحكت المرأتان ، والنشوة تطفح على الوجوه المرحة .

**

دارت السيارة من جهة (البولص خانة) نحو الشارع المعبد رصيفه بالحجارة الكلسية والإسفلت ، كان مطلاً على النهر البني الذي يهدر بجريانه السريع ، وقد وصل مده إلى المنطقة المبنية بالحجر الأبيض الصقيل المرمي على الضفة ، كانت اليخوت الكبيرة الحجم والمزينة بالألوان والمضاءة بالمصابيح تعوم هادئة في الماء المنحدر بقوة في النهر ، وقد انطلقت منها الألحان الموسيقية بتوافقات عذبة . كانت العمة ترقب القوارب الخشبية المكشوفة التي تسير بقوة المجاذيف وهي تعوم ببطء - كانت تراقب عضلات المجذفين القوية المفتولة وهم يضربون بشهوة في الماء العاصي - متجهين نحو قنطرة الجسر الإسمنتية الكبيرة المواجهة للمطاعم المشيدة بالزجاج والألمنيوم .

في الحدائق القريبة من المطاعم كان دخان شواء السمك الأبيض يتصاعد في الفضاء بين الأعشاب الكثة والجذوع المشققة اللحاء ، وعلى الأرصفة الحجرية كانت تباع الفاكهة المغسولة وقد صففت بطبقات عالية فوق عربات السحب الخشبية . في ذلك الشارع كانت السيارة تنطلق بهدوء ومرآتها تعكس وجه العمة الصامت وهي تحدق في المطر القصديري اللون وهو يتحطم على الزجاجة الأمامية للسيارة .

- (ألا نتعشى سمكاً مسكوفاً؟ هنا على هذا الشاطئ . . ماذا تقولون؟) قال الغريب بلهجته الساحرة .

- (هي . . سمك مسكوف . . ما أحلى أفكارك . .) .

- (لا ضير . . مع أني لست جائعة) قالت العمة .

- (حين تشمين رائحة الشواء في شارع أبو نؤاس . . سوف تأكلين السمك الحي أيضاً . .) قال الغريب .

- (ربما بسبب جمال المكان) .

- (وهل هذه قليلة؟) قالت الفتاة .

- (لا . . لا طبعاً . . العبرة ليست في الأكل . . ولكن حين يكون المكان جميلاً كهذا المكان ورحلة ممتعة كهذه الرحلة . . لن يكون المذاق اعتيادياً . . بل سيتغير كل شيء . والمتعة التي لم نألفها من قبل ستتحول إلى كرنفال) .

- (أوه . . سيكون عشاءً ممتعاً حقاً . . لن نأكل كي نشبع ، سنتذوق ونتحسس كل شيء بحواسنا ونستمتع بمتعة خارج نطاق الجوع والشبع) . قال الغريب وهو يضرب بيديه العاريتين على مقود السيارة . . (هي . . سنحول المتعة إلى ذكرى) .

كان المطر قد توقف تماماً حين توقفت السيارة في البارك . وهبط الثلاثة يتراكضون نحو حوض أبيض مملوء بالماء ، يلبط فيه السمك الحي بألوانه الفضية ، وتضوع في الفضاء المبلل رائحته الطرية وشهوة صياده ، كانت الكازينو التي توقفوا قربها واسعة ، ظللت بجذوع الأشجار والأغصان الخضر المغسولة . أشار الغريب إلى سمكة كبيرة انتشلها الرجل الذي كان واقفاً أمام الحوض بمشك وأخذها ليثبتها بمقص حديد أمام النار ، كان الدخان يتصاعد مختلطاً برائحة السمك النفاذة الرائعة .

هرع الغريب مسرعاً ليجلب لهم الخبز الساخن والمخللات ، ثم أخذ الثلاثة يأكلون بتلذذ .

كانت القطط تقترب بحذر من طاولتهم ، وحين انتبهت لها العمة رمت قطعة من السمك على الأرض المملوءة بقشور البرتقال وأعقاب

السجائر خارج سياج المطعم الواطىء ، فالتهمتها وهربت بسرعة إلى ضفة الساقية الصغيرة المحيطة بالحديقة المطلة على النهر .

هرع الغريب ثانية إلى عربة سحب بالقرب من الشارع وجاء بثلاث برتقالات كبيرة ، لمعت ألوانها المشعة في الماء الرقراق بعد أن وضعهن في صحن من ماء نقي ، وناولهن إلى المرأتين ، وحين بدأوا بتقشير البرتقال فاحت الرائحة الشذية في الفضاء الرطب وهم يتوجهون نحو السيارة .

أخرج الغريب منديله من جيب معطفه وأخذ يمسح يديه وفمه .

(٦)

كانت الشوارع تكاد تخلو من السابلة بعد أن انطلقت السيارة متخذة الطريق المؤدي إلى المنزل ، أخذ المطر يشتد شيئاً فشيئاً في طريق العودة وقد اشتعلت أضواء الأعمدة الكهربائية في الشوارع المغسولة ، كانت السيارات تمر بسرعة مخلفة وراءها رشقات الطين والماء ، وبعد أن وصلوا المنزل أطلق الغريب بمنبه سيارته الهوائي ثلاث مرات ، فانفتحت البوابة الحديدية الخارجية وقد وقف بجانبها الحارس الكردي وعلى كتفه غدارته ، دخلت السيارة حتى وصلت الدكات المرمرية ثم هبط منها الثلاثة راكضين ، متوجهين نحو الباب الخشبي الذي يقطر ماءً .

فتح سليمان الباب ودخلوا الصالة المضاءة الدافئة بعد أن توقفوا قليلاً عند المرآة الموجودة يمين الباب ، وهم يتضاحكون ويمزح بعضهم مع بعض . لقد عكست المرآة الطولية المبرنقة ثلاثة وجوه طافحة بالغبطة والمرح والنشوة .

وحين دخلوا الصالة المضاءة ، سارعوا إلى الوجاق المشتعل بناره المتلامعة القصيرة اللهب وأخذوا يجففون شعرهم وملابسهم على

النار ، بينما كانت الزوجة منشغلة أمام الخوان بتطريز المنديل بإبرتها المعقوفة وخيوط القطن الملونة .

هرع سليمان نحوهم يحمل في يده المعروقة كأساً مضلعة وزجاجة نبيذ مقعورة ، وبعد أن صب الغريب لنفسه كأساً ، أخذ يتنفس بعمق وصاح على سليمان :

– (سليمان . . اجلب لي صحناً من الفلفل الحار . . من فضلك) .

– (ماذا تفعل بالفلفل؟) قالت العمة مندهشة .

– (أحب تناول الفلفل . . كي أشعر ببرودة النبيذ) .

– (أصحيح ما تقول؟) . قالت الفتاة .

وبعد أن جاء سليمان بصحن من الفلفل ووضعه قبالته ، أخذ فلفلة حمراء طويلة وقضمها بأسنانه ، ثم تناول كأس النبيذ وأخذ يعبه في فمه ، مستسلماً بحسية تامة لبرودة النبيذ وهو يؤخره بفمه ، ويغمض عينيه قبل ابتلاعه ، وكانت الفتاة تغطس في ضحكتها المكتومة .

– (ألا تجربونه) .

– (تناولت العمة فلفلة حمراء ووضعتها في فمها ، وحين شعرت بحرارتها التقطت الكأس المملوءة من يد الغريب وابتلعته بسرعة ، وهي تحرك بعينيها اللتين امتلأتا بالدموع يميناً وشمالاً ، حيث غرق الغريب والفتاة بضحكات مجلجلة) ، فالتفت الغريب إلى الفتاة وقال لها :

– (دورك أنت . . جربيه) .

أغمضت الفتاة عينيها ، فتركت رموشها السود ظلاً فاتراً على خدودها الوردية ، وقضمت بهدوء طرف الفلفلة الأحمر المدبب بأسنانها البيض الناصعة ، وما إن لامس طرف لسانها الفلفلة المقضومة حتى شهقت بقوة ، وقد فتحت عينيها السوداوين على اتساعهما وقد لمعتا بطبقة خفيفة من الدمع ، وتدلى لسانها الأحمر اللزج مثل جلدة منقوعة ، وتفجر وجهها الأبيض بصفرة قانية . قفزت أول الأمر نحو الغريب وهي مرتعبة ، وانتزعت بعنف كأس النبيذ من يده ، وارتشفت منها رشفة قصيرة إلا أنها صعقت من طعمه الحاد بصورة أسوأ من سابقتها ، وهرعت راكضة بسرعة متجهة نحو بهو الخدم ، فاصطدمت بالأريكة حتى كادت تسقط ، وحين عدلت مشيتها تعالى الضحك من العمة والغريب معاً ، وبعد أن خفت ضحكهما ألقت زوجة الغريب المنديل والإبرة المعقوفة على الخوان الذي قبالتها وغرقت في ضحكة عالية ، وقد كان صوت الفتاة اللاهث يدوي في الرواق الشرقي مخنوقاً متهدجاً (ماء . . ماء . . ماء) .

التفت الغريب بعينيه الناعستين بصورة ودودة إلى زوجته وقال لها :

- (هيْ نازك . . جربيه لنر ما مدى تحملك . . باللّه جربيه) .

- (أي واللّه نازك جربيه . . لخاطري) . قالت العمة .

- (لا . . اعفوني . . من هذا الأمر نبيذ وفلفل لا يمكنني ذلك) .

- (جربيه . . اعتبريها مسابقة . . أنا تحملت أكثر مما تحملت ابنة أخي . . وزوجك مخترعه . . وتحمله بالتأكيد أكثر من تحملنا . . ثم هو رجل ونحن نساء . . لنعتبر الأمر مسابقة بين الرجال والنساء ربما تفوز

المرأة في النهاية . . من يدري!) كانت العمة تتودد إليها من أجل إرضائه لا غير .

- (نعم ابنة أخيك لا طاقة لها مطلقاً . . لنر مدى تحمل نازك . . أي منكن تتحمل النبيذ والفلفل أكثر من الأخرى؟) قال الغريب وهو يتودد إلى زوجته ويحرضها .

- (لا . . لا تحاول . . أنا لا أدس أنفي في مباريات من هذا النوع . . أنا مقتنعة بنفسي هكذا . . سواء أكانت لي طاقة أو لم تكن . .) .

قالت نازك هذا ، ثم تناولت المنديل الأبيض الملقى على الخوان وأخذت تطرزه بالإبرة المعقوفة ، وهي تبتسم مع نفسها محنية الرأس ، وفي تلك اللحظة دخلت الفتاة بخطى وئيدة وقد احمر خداها من الخجل ، كانت تحمل في يدها البيضاء الناعمة كأساً من الماء البارد ترشف منه رشفات بطيئة متقطعة ، وهي تخفي في عينيها السوداوين البراقتين ضحكة مكتومة .

- (لن أتورط مرة أخرى بتسلياتك . . مطلقاً) قالت الفتاة .

- (أتسمين هذه تسلية؟ . . ربما ولكنها تنطوي على متعة لن يقدر لك أن تستمتعي بها بعد اليوم ولذا فأنت الخاسرة) .

قال الغريب جملته هذه ، وهو يطبق بهدوء عينيه ، بعد أن وضع كأس النبيذ بين شفتيه المكتنزتين وقد رفع بيده للأعلى فلفلة حمراء كبيرة .

- (كيف تستمتع بالنبيذ؟ . . إن طعمه لاذع ورائحته كريهة) . قالت الفتاة .

- (لا أشعر بذلك . .) .

- (ولكنك شربته) قالت العمة .

- (نعم . . قليلاً . . ولكني لم أشعر بطعمه اللاذع ولا برائحته الكريهة أول الأمر ، ربما لأني احتسيته مع الأكل وقد غطى الأكل تماماً على مساوئه) .

قالت الفتاة .

- (ربما . .) قالت العمة وكأنها تكذبها .

- (أفضل الماء بعد كل شيء إنه بارد ونقي . . حين أرتشفه أشعر بجسدي يبرد وبعروقي وهي تبتل . . إنه أفضل من النبيذ ومن كل الأشياء المصنعة الأخرى) قالت الفتاة وهي تنظر نحو عمتها .

- (أنا أفضل الماء أيضاً ، الماء أسمى كما يبدو لي . .) قالت العمة ذلك وهي تهز برأسها إلى الغريب ، غير أنه عبر بملامحه عن عدم الرضى وقال بعد أن أطرق قليلاً إلى الأسفل :

- (أنتم مخطئون . . هنالك فضائل في النبيذ لم تدركوها بعد . . الدفء في الشتاء مثلاً . . الطعم الحاد يشعرني بأنني أضع شيئاً في فمي يدوم مدة غير قصيرة . . الكثافة وأنا أعبه أشعر بالامتلاء . . ولكن كل هذه الفضائل بحاجة إلى أن تتحول إلى عادة . . حين تحتسونه باستمرار يخيل إليكم بعد فترة أن لا سعادة دونه . . فهو وحده الذي يشعركم بالخفة والمرح . .) .

قال الغريب ذلك وقد قفزت القطة السوداء ذات الشعر الغزير وتكومت على نفسها في حضنه ، وهي تغمض عينيها المتألقتين وتفتحهما بصورة هادئة ، لقد كان جسدها السمين يهتز مغرغراً بصورة

متواصلة تحت خفقة يده .

- (التعويد . . لا هذا الشيء يثير استغرابي . . ماذا أفعل بسعادات لا تنشأ إلا من العادة والتكرار . . هذه السعادة ليست كامنة في الشيء ذاته . . إنما من سد النقص الحاصل بسبب فقدان الأشياء التي نتعود على تكرارها . . ماكو داعي أن نعود نفسنا على أشياء جديدة حتى نفرح بتكرارها . . السعادة الحقيقية هي أن نقلص احتياجاتنا قدر إمكاننا . . الحياة الحقيقية هي في التخلي عن الأشياء لا بامتلاكها) . قالت العمة بهدوء وحين تنبهت على القطة وهي تغرغر براحة وهدوء في حضنه ، شهقت وقالت بصوت مستغرب راعش :

- (غريب . . والله غريب . . لم يسبق لها مطلقاً أن تكومت في حضن أحد غيري . . أبداً ولا اقتربت من أحد ، ربما تسمح ولمرات قليلة نادرة لأحد أن يلمسها أو يمسدها ، إلا أنها لم يسبق لها أن قفزت من تلقاء نفسها في حضن أحد . . ولا مرة في حياتها ولا حتى في حضن ابنة أخي هذه) .

- (صحيح . . ولا حتى أنا . . مرات أمسدها . . فترضى وحين ترى عمتي تهرب مني وبسرعة ثم تتكوم في حضنها) .

- (أنا أيضاً مولع بالقطط ومولع بتربيتها . . أتعرفون؟) .

- (صحيح؟ . . هذا شيء رائع . . واضح عليك) قالت العمة مبتسمة .

- (نعم حتى وأنا طفل) .

- (أنا أظن أن هذا الأمر ينشأ منذ الصغر) قالت الفتاة .

- (هذا صحيح) قالت العمة .
- (لا أنام أبداً إلا وثلاث قطط شيرازية كانت قد أهدتها لي خالتي تنام معي في السرير . . ما أقدر أنام إلا وعلى صدري قطة) .
- (كم جميل مشهدك بين القطط!) قالت الفتاة وهي تضحك .
- (كانت إحداهن تنسل في الأغطية لتذهب بعيداً حتى تصل إلى قدمي وتنام هناك حتى الصباح هادئة مطمئنة) .
- (أوه . .) قالت العمة (أنا أيضاً مذ طفولتي كنت أتشاجر مع أهلي كل ليلة وكنت أذهب إلى الحديقة في الشتاء البارد ، أبحث عن قططي وأصطحبهن معي إلى الفراش . كان والدي يكره القطط بشدة ، غير أنه كان يربي كلاباً في حظائر بناها في الجانب الخلفي من الحديقة أخذت تتوالد جيلاً بعد جيل حتى هذا اليوم ، فهو يقول (الكلاب خير من القطط ، شجاعتهن للحراسة وذكاؤهن للصيد ، ولكن ما نفع القطط؟ القطة جبانة وغبية ، ومن ثم القطة أنانية بيد أن الكلب وفي . . ربما تنفع المرأة لأنها مثلها متخاذلة ولكنها لا تنفع الرجل لأنه مغامر) .
- (أنا أيضاً كنت أشاكس أمي في هذا الأمر . . أتعرفين . . فقد كانت تحب تربية الكلاب . . ولكن كانت تتبع نزواتها . . فهي تجلب الكلب وتربيه . . وتبالغ في دلاله وبعد أن تشبع رغبتها منه تذله وتطرده لأتفه الأسباب . . مرة كانت مولعة بكلب (بولدوغ) أهدته إياها سيدة كانت تعمل في السفارة النرويجية في الرباط . . في يوم من الأيام وسخ لها شراشفها ، فشحب وجهها وزمت شفتيها واقتادته في الظلام رغم أنفه ، كان المسكين قد صلب قوائمه بعد أن أدرك عزمها . . وهو يكشر

أنيابه ويزمجر بصوت منخفض موحش . . ثم أخذت تضرب على عينيه بقبضتها العارية حتى تورمت عيناه . . وحين تعبت يدها أخذت قضيباً خشبياً وأخذت تضربه على رأسه وعلى قوائمه . . فهرب المسكين إلى حظيرته مذهولاً نصف أعمى . . وفي الصباح أخذته في سيارتها لترميه خارج المدينة وهو بين الموت والحياة . . وظلت يومين صامتة لا أحد يجرؤ أن يكلمها . وليخفف عنها والدي جاء لها بكلب صغير . . فتحول المنزل إلى حلبة مصارعة بين كلب أمي وقططي . . كانت الغيرة تفتك بهن كلما اقتربن من كلب أمي) .

كان الغريب يمسد القطة التي تغفو إغفاءة صغيرة تحت خفقة يده ، وكانت العمة تفغر فمها وكأنها لا تصدق أذنيها لوحشية وقسوة ما يتحدث به عن معاملة أمه لكلبها ، فاستدرك الغريب قائلاً :

- (القطط تميز من النظرة الأولى من يحبها ومن لا يحبها) .

- (طبعاً . . هذا أمر أعرفه . . إنها لا تقترب مطلقاً ممن يكرهها فهي تحدق في عيني من تراه أولاً ومن ثم تقرر) .

- (نعم . . كانت قططي الثلاث لا تقترب من أمي مطلقاً ، ولكنها تفعل عكس ذلك مع والدي فهي تقفز في حضنه . . وتتملقه لأنها تعرف جيداً أنه هو رب المنزل) .

تحركت الفتاة بخطى رشيقة لتضع كأس الماء نصف الفارغة على حافة النافذة القرميدية الباردة ، وقد أزاحت قليلاً الستائر المخملية الثقيلة ، كانت الغيوم البيض تتفرق شيئاً فشيئاً ، وقد توقف الرذاذ ، وأخذ المرمر الأبيض الصقيل المبلل بالماء يلمع في مماشي الحديقة الغسقية . والتفتت نحو عمتها :

- (صحيح عمة . . ما هذه العداوة بين القطط والكلاب . . لقد حيرتني . . أتعرفين لم أجد لها تفسيراً أول الأمر . . لقد شاهدتها بين قطط والدي وكلاب أمي أيام كنا نقطن في القاهرة . . في ذلك الوقت كنت صغيرة وما أعرف ليش . . كنت أعتقد أن الحيوانات تتبع من يربيها ويعتني بها . . ولأن أمي كانت كثيرة الشجار مع والدي فإن كلابها أيضاً تختلق العداوة مع قططه) .

كانت العمة تنظر ، وهي جالسة أمام الوجاق الذي يلفح بناره وجهها الأحمر إلى النافذة ، وقد لاحت من خلالها نجمة كبيرة مضيئة بين جذعي شجرة الصفصاف ، وبهدوء عميق قالت وهي تلتفت نحو الغريب :

- (لا . . هنالك سوء تفاهم وحسب . . فالكلاب حين تبتهج لأمر ما تعلن عن ودها بهز ذنبها هزات متلاحقة وهي تهرّ بصوت مخنوق خارج من الأنف ، وهذا بطبيعة الأمر مخالف لطبيعة القطط فإنها لا تهز بذنبها بالطريقة التي يهز بها الكلب ذنبه إلا في حالات الاشتباك أو الانقضاض على الفريسة . . وما إن يأتي الكلب مبتهجاً متودداً للقطة وهو معروف بتملقه . . حتى تظن أنه جاء لينقض عليها أو يحرضها على الاشتباك . . فتبدأ بهز ذنبها أيضاً . . وتنفش شعرها بعد أن ترفع أكتافها وتصرخ بوجهه بصوتها الموحش) .

انفجر الغريب بضحكه المتقطع الرنان في الصالة الدافئة المضاءة بالمصابيح ، حتى استيقظت القطة ، فقفزت في الحال من حضنه إلى حضن العمة التي أخذت تمسدها بيدها الناعمة البيضاء المحلاة بالخواتم الألمازية .

- (ها . . هكذا إذن . . ما كنت أعرف . . كنت أظنها مسألة بقاء وحسب) .

- (لا ليست هكذا . . مسألة بقاء . . هذا سوء التفاهم قائم بسبب الطبيعتين المختلفتين لكليهما) قالت العمة ذلك ، وقد أراحها التأثير الذي خلفته على وجهه .

كانت الزوجة في تلك الساعة من منتصف الليل ، تطرز بالمنديل الأبيض الذي بيدها ، وحين ساد الصمت تنبهت على الوقت المتأخر الذي لم يشعر به أحد في الصالة سواها ، فتثاءبت وهي تنظر نحو الساعة الموضوعة على الجدار وألقت بالمنديل والإبرة المعقوفة على خشب الخوان وهي تنظر نحوهم نظرات متغطرسة .

- (الوقت متأخر . . ها . . ما شعرتم به) .

- (أما مللت التطريز نازك . . منذ متى وأنت تطرزين) قال الغريب وهو يتكلف الابتسام لزوجته .

- (ها . . ايه . . لقد طرزت منديلاً) .

- (لي . .) قال الغريب .

- (لا . . لنفسي) .

- (ما تطرزي لي منديلاً) .

- (لقد مللت التطريز . . ربما في وقت آخر) .

نهض الغريب ، وتقدم بخطوات رشيقة ليلتقط المنديل الأبيض الموضوع على الخوان وهو يقول :

- (ولكن هذا المنديل لا يصلح للعبة . . أتعرفين . . لأننا نفترض بالمنديل أن يكون شبيهاً بالمناديل الأخرى وما من علامة تميزه عنها . .

ها . . فهذه اللعبة تعتمد على الأنف بالدرجة الأولى) .

- (لا تصنع المناديل فقط لهذه اللعبة) .

- (صحيح) .

- (أما نلعبها مرة أخرى؟ . . أنا متشوقة لها . . لقد كانت لعبة جميلة حقاً . . دعونا نلعبها اليوم) . قالت الفتاة ذلك وهي متهيئة .

- (لا . . أظن أن الوقت تأخر . . كما أني أرغب بمصاحبة نازك إلى حجرتها) .

- (نعم الوقت تأخر) قالت زوجة الغريب .

- (أي وقت تأخر؟) قالت العمة (ماذا وراءنا؟ . . الأيام الساعات الدقائق كلها متشابهة) .

- (ستكون لنا لحظات سعيدة غداً في الصباح) . قال الغريب وهو يجامل المرأتين .

- (هو اقـتـــراح . . لا أظن هنالك خللاً من أن نخلق من هذه اللحظة ، لحظة سعيدة ونعوضها غداً في النوم . . نحن لا نتذكر اللحظة لأنها لحظة . . إنما نتذكر السعادة اللي تحملها . . أما اللحظة ما فائدتها فهي تشبه اللي قبلها واللي بعدها أيضاً) .

قالت العمة ذلك وقد غمرها شعور دافق يلمع في عينيها ويشع من وجهها المرتاح . إلا أن الفتاة اندهشت من عمتها التي لم تسمع منها كلاماً كهذا الكلام من قبل ، ومع ذلك دافعت عن رأي عمتها بالرغم من اختلاف مقصدها عنها .

- (صحيح . .) قالت الفتاة (ما تقوله عمتي صحيح ، لم لا نلعبها الآن؟ ماذا وراءنا ، سنستيقظ ظهراً وإن شئتم عصراً) .

نظر الغريب إلى زوجته نظرات مستفهمة ومرر أصابعه الناعمة في خصلات شعره المسرحة .

- (حسن) قالت زوجته «ولكن بشرط» .

- (نحن موافقون) قالت الفتاة وهي تضحك .

- (ما هو؟) قالت العمة .

- (ألعب بمنديلي الذي طرزته الآن) .

نظرت العمة إلى الفتاة أول الأمر ثم حولت نظراتها إلى الغريب وسألته :

- (هل يجوز ذلك؟ . قبل قليل أنت قلت إنه لا يصلح لهذه اللعبة) .

- (أحياناً . . يجوز . . ممكن . . لا يضر كثيراً . . سنلعبها بالأنف في نهاية الأمر) .

- (حسن . . أنت تعرفها جيداً أكثر منا وأنت تعرف الذي يصح من غيره) . قالت العمة ذلك بعد أن رأت تردد الغريب وهو يهز كتفه ويزم شفتيه .

- (يالله عمة . . هات الصندوق الحريري) . قالت الفتاة .

نهضت العمة من مكانها بسرعة وجاءت بالصندوق الحريري من حجرتها والمنديل ، ثم صعد الغريب والفتاة إلى الدور العلوي ليجلبا مناديلهما . . إلا أنهما تأخرا . . فنظرت العمة إلى نازك أول الأمر إلا أنها وجدتها غير مبالية بالأمر بل منشغلة في التحديق إلى وجهها في المرآة ، فشعرت بشيء مريب هناك ، أخذت تسير في الصالة جيئة وذهاباً ، ولم يعودا من الأعلى فأرادت تحريض نازك فسألتها :

- (تأخرا . . تأخرا . . أليس كذلك . لا تستغرق المناديل كل هذا الوقت . ها! . . أما صحيح؟) .

- . . . .

لم تستطع العمة صبراً ، فذهبت بخطوات مسرعة نحو السلم ، فسمعتهما يتهامسان ويكركران وهما يهبطان السلم ، وحين نظرت العمة إلى ابنة أخيها حدجتها بنظرة قاسية مما أراع الفتاة .

- (لقد تأخرتما) قالت العمة وهي تنظر بقلق نحوها .

- (كنت أضعت منديلي في جرارات الخوان) قال الغريب .

ثم دخلوا الصالة نصف المضاءة ، وأشعلوا الشمعدان ، وتحركت العمة قليلاً لتطفىء الأضواء ، وجلست قبالة الصندوق مباشرة وسألته :

- (من يلعب أولاً؟) .

- (أنا . .) قال الغريب .

- (لا . . لا تكن أنانياً . . أنا سألعبها أول مرة) قالت نازك .

- (حسن . . أنت أولاً . . ليدي از فرست) . وهو يضحك ضحكة ناعمة .

جلست الزوجة أمام الصندوق وأخذت تبحث بين المناديل بيديها ، والضحكات تعلو ، ضحكات العمة المبتهجة باللعبة وابنة أخيها .

- (ياللّه نازك . . دبريها هذه المرة واعرفي منديلي) .

- (هذا المنديل . .) وأخذت تشمه (. . منديلي) . ورمته عليهم بخفة .

وحين أصبح المنديل في حضن العمة استوضحته على النور المنبعث من شمعة واحدة من الشمعدان الموضوع خلفها لم تجد عليه آثار التطريز .

- (لا أظن . .) قالت العمة .

- (أعطيني إياه . .) قال الزوج وهو مرتبك (. . لا نازك . . هذا منديلي) . ضحكت العمة ضحكات قوية عالية وأعقبتها الفتاة بضحكة أخرى . . وبقي الزوج ينظر إلى زوجته الساهمة بنظرات مجاملة وسخط معاً .

جلس الغريب إلى الصندوق ، بعد أن استدار استدارته المسرحية مقلداً الساحر وخلع جاكتته ، وضع راحته على جبينه ، ترك رأسه يعود للوراء ثم للأمام ، بعد ذلك مرر أصابعه داخل الصندوق ، فابتهجت العمة وابنة أخيها لهذه الحركات وهن يغطسن في الضحك ، وانتشل منديلاً مرره إلى أنفه وأعاده في الصندوق ، ثم كرر العملية ثانية وثالثة ورابعة وخامسة حتى ساد صمت ثقيل على الجميع .

كان قلب العمة في هذه اللحظات يدق بقوة ، وهي ترقب المشهد ، ثم أخرج منديلاً وأخذ يحرك بعينيه بين الجميع وصاح هذا منديلك . كانت النساء الثلاث فاغرات أفواههن ، وبعد أن رمى المنديل في حضن الفتاة صرخت صرخة قوية :

- (. . هيْ . .) .

وضعت المنديل على وجهها من الغبطة والفرح ، بيد أن العمة حبست في عينيها دمعة ساخنة . أخذت الفتاة مكانه أمام الصندوق

بينما هو كان يرتدي جاكتته وقلدت حركاته ، استدارت استدارة مسرحية ، جلست ، ثم أخذت ترد رأسها إلى وراء وأمام ، مررت أصابعها في الصندوق وأخذت تتشمم المناديل واحداً بعد آخر ، ثم أخرجت منديلاً ظلت تشمه بعمق ورمته في حضن الغريب وهي تقول :

- (هذا منديلك . . لن أخطئه) ولكن بعد أن رمته في حضن الغريب وأخذ يتشممه قال :

- (لا هذا ليس منديلي) فامتقع وجهها أول الأمر ، نهضت نحوه مسرعة ، تناولته من يده وأخذت تتفحصه :-

- (هذا منديلي . . ولكن كيف أخطئه . . وأخذت تتشممه . . أوه . . علق به من رائحة يديك حين عرفته . . قبل قليل) ضحكت العمة ضحكات عالية وهي تسير باتجاه الصندوق ، وحين أعادت الفتاة المنديل إلى الصندوق ثانية تحاشت نظرات العمة المؤنبة المستنكرة .

جلست العمة أمام الصندوق بهدوء كبير وهي تنظر نحوهم نظرات قلقة ، ومدت أصابعها داخل الصندوق ولم تطل وقتاً ، بل بعثرت المناديل يميناً وشمالاً وتناولت واحداً بإصبعيها ورفعته إلى أنفها لتشمه ، وأطالت وقتاً وهي تغمض عينيها وأطلقت زفيراً ساخناً وقالت :

- (هذا منديلك الذي كانت تبحث عنه ابنة أخي وهي تنظر نحو الفتاة) . وحين التقطه الغريب وتبينه ، قال :

- (نعم . . منديلي . . هذا منديلي) .

صرخت الفتاة في وجه عمتها :

- (ولكنني أخطأت بسبب الرائحة أيضاً . . واللعبة لعبة أنف كما يقول) .

- (نعم . . لا نستطيع أن نقول أنت خسرت بعد كل شيء) .

قال الغريب وهو ينظر نحو الفتاة .

- (لا . . الأمر ليس كذلك) قالت العمة (أنت لم تستطيعي التعرف عليه) .

- (ولكنه تعرف على منديلي . . وهذا المهم . . ولم يتعرف على منديلك . . كما تريدين) . قالت الفتاة وقد بدا السخط في عينيها واضحاً .

- (أنا أذهب إلى حجرتي . . لأني أشعر بالتعب) . قالت الزوجة وهي تنظر نحو زوجها نظرات قلقة .

- (أنا أيضاً متعب سأرافقها ، اعذروني ، أعدكم بأننا سنلعبها مرة أخرى وسترضون بذلك ، ولا داعي للجدال) .

نهضت الفتاة من مكانها وهرعت نحو السلم باكية ، ثم نظر الغريب إلى العمة وقال :

- (ما كان عليك أن تجرحيها) .

لقد فهمت العمة من ذلك أن الغريب يلزم جانبها ، فكتمتها في نفسها ، استأذن هو وزوجته ، وارتقيا السلم ، بينما بقيت العمة في الصالة وحيدة ما خلا سليمان الذي جاء ليرتب المكان خلفهم ويسدل الستائر .

(٧)

وقفت العمة بوجهها الحائر أمام الساعة الجدارية الكبيرة الموضوعة على عمود المرمر في الصالة الدائرية ذات الأرائك المصنوعة من السنديان ، ثم جلست على الطنافس الحريرية الملونة ترقب عقارب الساعة وهي تطارد الواحدة منها الأخرى بصورة بطيئة ، كانت تنظر بهدوء وتتنهد بصمت ، وحين جاء لها سليمان بالشمعدان ذي الشعل التسع تناولت العمة قداحة الغريب الذهبية المطعمة بالستاير النجمي من على صفحة الوجاق ، وأخذت تشعل الشموع نصف الذائبة ، إلا أنها لم تفلح ، فرمتها بحنان على صفحة الوجاق والتفتت إلى سليمان وأمرته أن يحضر بالحال علبة كبريت ، فأخرج سليمان علبة الكبريت من جيبه ، وأوقدت الشمعدان الذي يحمله لها وأخذت ترتقي درجات السلم ، لم يكن هنالك إلا السكون يتخلله نباح الكلاب السلوقية المطلقة من حظائرها في الحدائق المحيطة بالمنزل .

وبعد أن بلغا حجرتها في الدور العلوي وضع سليمان الشمعدان على الخوان الكبير ذي المرآة المبرنقة وأغلق الباب وراءه ، وأخذ

يتحسس طريقه في الظلام الدامس الذي يجتاح المنزل .

**

كانت العمة وحدها وسط السكون تنظر نحو الروزنامة الموضوعة على جدار الحجرة المقابل للسرير مباشرة ، وكانت تزينها صورة جبال شاهقة وقد كللت قممها العالية أطنان من الثلج الأبيض .

كانت الورقة الأخيرة الموجودة في الروزنامة لم تتغير بعد ، لم تمزقها كعادتها صبيحة كل يوم ، إنما كانت تحمل تاريخ اليوم نفسه الذي دخل الغريب فيه المنزل .

لقد مرت هذه الأيام دون أن تشعر بها وكأنها ساعة واحدة . نظرت بهدوء إلى الساعة التي قبالتها وشعرت بالوقت الحر الذي لا يجثم عليه عبء الحياة الثقيل ، قالت في نفسها :

- (كم مر على وجوده بيننا ، كأن الزمان الذي حولنا لا يجري مطلقاً) . وتذكرت حياتها قبل حضوره :

- (لقد كان لي وقت كثير هدرته بسخاء) كانت تسهر على الدوام في عد الوقت وحساب وحداته . . ولكن ما مدى طوله وقصره .

أطرقت العمة برأسها الصغير وكأنها تعاين شيئاً بين أقدامها (هل تستطيع الساعة قياسه . . هل تستطيع الروزنامة ذلك) أخذت العمة تنظر نحو العقرب الكبير وهو يكمل دورته في عد دقيقة واحدة (هل تستطيع هذه الساعة تعيير الزمن . . ولكن بالنسبة لمن . . لي . . هذه الساعة تقيسه بالمسافة ولكن ما طوله بالنسبة لي . . ما الذي طرأ علي . . ما هذه القوة التي أشعر بها؟) .

كانت الساعة تتقدم إلى الأمام والعمة تشعر بأن لا قيمة للوقت

أبداً . . (كيف أحدد المدة التي أمضاها معنا . . ما عاد هنالك أي وزن أو قياس . . وكأني أريد من عمري أن يجري دون أن أحس به) التفتت إلى الخوان الذي أمامها ، ونظرت إلى وجهها وكأنه تغير ، كانت الساعات تجري بدهشة سعيدة والعمة شعرت بشيء غريب للمرة الأولى ، لقد أدركت بأن الإنسان حين يحب فإنه يشعر بحاضر أبدي . . إن مقياس الزمن في داخله وليس بالآلة الخارجية . . لا الساعات . . ولا الليل والنهار . . ولا حتى تعاقب الفصول . . بالإمكان قياسه . . (مذ رأيته حتى اليوم وأنا أريد أن أنهب الزمن بلا تحسب ولا احتراس . . أريد أن أقفز الأيام بسرعة) . قالت في نفسها .

**

وبعد أن طلع الصباح عليها وهي نائمة في حجرتها استيقظت متأخرة ، كانت تشعر بالحياة الاصطناعية تضمحل وتتفتت بين أصابعها ، لقد خرجت عن نطاق الزمن .

شعرت العمة أول الأمر ببهجة وهي ترى الغرفة تضاء وتنبثق الأشياء العادية التافهة من أعماق العتمة ، كانت الأيام جامدة طويلة ، يصعب التمييز بينها ، ضحكت وهي تفتح النافذة وتنغمر انغماراً في هذا الصباح الرائق . . كانت أحست بهذه الإثارة التي تطبق عليها مذ رأته حتى اليوم :

- (أي حياة تافهة عديمة الجدوى كنت أحياها وأنا أتابع بفضول أوراق الروزنامة ، وأرقب تطاير الأسابيع وتتابعها . . كيف كان يحيا الإنسان البدائي . . لا بد أنه كان سعيداً وهو لا يملك وحدة قياس . . فماذا فعلنا بأنفسنا ، ما الذي يجعل للأيام أسماء وأرقامًا وعداً

وحساباً وقياساً . . أصبح هذا الشيء يصيبني بالهلع . .) .

لقد أدركت العمة أن ما يجعل أيامها تتبخر على هذا النحو هي تلك الهزة التي ترعش أوتار القلب .

**

ارتدت العمة ملابسها الأنيقة على عجل ولفت شعرها الحنائي اللون بفولارات حرير ، وهبطت السلم برشاقة ، إلا أن ما أحزنها حقاً هو أنها لم تجد أحداً في الصالة سوى نازك ، وحين سألتها عن الباقين قالت ببرود :

- (خرجا إلى الحديقة) .

خرجت إلى الحديقة إلا أنها لم تجدهما وراحت تبحث ساخطة في عنابر الكلاب وحظائر الحيوانات خلف المنزل ، وقد أوجست أمراً ما ، إلا أنها لم تجدهما . . وحين دخلت إلى الصالة وجدت سليمان بمواجهتها وسألته :

- (أين ذهبا؟) .

- (قالت لي الخانم الصغيرة إنهما سيتنزهان في الضاحية ولا يعودان إلا وقت الغداء) .

كان الزمن يمر ببطء ، ما عادت الدقائق خفيفة نشطة ، كان قلبها يدق وهي تسير إلى الحديقة وتدخل الصالة ، وتذهب إلى حجرتها ، كانت أنفاسها تنقبض وحنقها يزداد والساعات ثقيلة . . كانت تتنفس بصعوبة وكأن الأمر يخنقها . . لقد خمنت أشياء كثيرة تفزعها . . حاولت أول الأمر أن تختلق الأعذار . . إلا أنها لم تفلح . . هبطت مسرعة على طاولة الغداء ، كانت المائدة منصوبة وزوجة

الغريب تنظر نحو العمة . .

- (هل ننتظرهما؟) . قالت زوجة الغريب .
- (ألا ترين معي ذلك؟) .
- (أنا جائعة . .) قالت زوجة الغريب .
- (حسن كلي أنت . . أنا سأنتظر . . لست جائعة) .

أخذت زوجة الغريب تأكل والعمة تجلس في الصالة ، كانت عيناها مثبتتين على الباب ، وقلبها ينبض بقوة ، كانت تشعر بكل دقيقة تمر دون أن تنطق بكلمة ، بينما كانت تتنهد بين آونة وأخرى وهي تنظر إلى عقارب الساعة التي تنحل فيها شيئاً فشيئاً .

كان الخدم الثلاثة في ذلك العصر المتجمد يتحلقون براحة حول المدفأة الموضوعة في الطرف القصي من الرواق الطويل المؤدي إلى المطبخ ، كانوا يجلسون بهدوء في ذلك المكان الدافىء ويتحدثون بموضوعات شتى . بينما كان سماور الشاي الأصطنبولي المحلى بالبرونز والمموه بالنيكل يقرقر ببخار الماء المغلي بينهم ، كان سليمان يحتل بكبرياء الكرسي الهزاز ذا المساند العالية ، الكرسي المصنوع من الخيزران الطري والمشدود بالحبال المجدولة . دخلت العمة عليهم ، وقف سليمان بطاقيته وملابسه البيض النظيفة وتبعه في الوقوف الخادمان السودانيان بملابسهما البيض النظيفة وطرابيشهما الحمراء المائلة قليلاً على جباههما الخلاسية ، وأخذوا يؤزئزون بلهجتهم الدافئة ، لقد وقف الثلاثة وقفة واحدة ، وقد قطعوا حديثهم فجأة على صوت العمة المباغت ، متأهبين لسماع الطلبات والأوامر .

لم تقل شيئاً إنما خرجت لتقف في الصالة وهي تشعر بهزة ثقيلة

في قلبها ويديها ثم سمعت الباب يفتح ، دخل الغريب مندفعاً نحو الصالة المضاءة نصف إضاءة ، وقف لدى الباب منتصباً بقامته الطويلة وبصدره العاري وقد استبانت عضلاته من بين قميصه المفتوح ، رفع ساقه الممتلئة تحت بنطاله الأنيق المقسم على أطرافه بعناية تامة ، ووضعها على دكة مرمرية عالية مطعمة زواياها بالسيراميك الملون بجانب الباب ، وأخذ يلمع بنشاط جزمته الجلدية الحمراء المبطنة بأهداب من القطن الأبيض .

ثم انطلق بخفة مندفعاً إلى الصالة ، حيث كانت تجلس زوجته وحيدة على كرسي منجد بالمخمل الملون بلون داكن ، ومفروشة بطنفسة من الساتان الأبيض ، وهي تطرز هادئة بإبرة معقوفة مناديل بيضاً بخيوط من الموهير الوردية .

صعدت العمة والفتاة معها إلى الدور العلوي ، واحدة بعد الأخرى ، متحاشيتي النظر الواحدة للأخرى .

**

قبل أن تشتد حلكة الظلام في الحديقة الرطبة ، انطلقت الخفافيش الرمادية ذات الرؤوس العارية من أوكارها في الأفاريز والزرائب وسقوف المعدن ، انطلقت من الثقوب والجحور والزوايا وانقضت بحركاتها السريعة الخاطفة ، متقاطعة في طيرانها الواطىء مع الأغصان الخضراء المتشابكة العالية ، ومتجاوزة الجذوع البنية المشققة اللحاء .

ثم أخذت الكلاب السلوقية تنبح نباحها الحاد ، وأخذ عواؤها الكئيب يدوي في أروقة الحديقة ، وفي ممراتها المبللة الواسعة ، وقد

اشتدت الريح ، وأخذت تصدر صوتاً كالصفير المزمجر في هبوبها القاسي وهي تضرب العتمات الحالكة .

صنعت العمة بنفسها هذه المرة طبقاً من كريما البرتقال المثلج ، تغطيه كتلة هشة من الحلوى والفواكه الشتوية بطبقات ، وقد تبعها سليمان مهرولاً ، وهو يمسك بالسكاكين والشوكات والصحون الصغيرة على صحاف من الفضة المطلية بطبقة خفيفة من الذهب الخالص البراق ، وقد دارت على الجالسين سعيدة ، مبتهجة ، بوجهها المشرق الضاحك ، وهي تناولهم واحداً بعد آخر ، صحنه والشوكة والسكين ، وتضع فيه شيئاً من الكريما المثلجة المطعمة بالفواكه .

ناولت الغريب الذي كان يبري بسكين قصيرة النصل غصناً من التين قصيراً وطرياً بيده الناعمة كان قد التقطه من شجرة التين الكبيرة المعمرة الكائنة بالقرب من بوابة المنزل . كان يبريه بصبر وهدوء ، ثم يلتقط ما كان يبريه من نشارة رطبة تسقط بين قدميه ، ويرميها في نار الوجاق القصيرة اللهب وقد احمر وجهه من لهيب النار المنعكسة على وجهه الأبيض المدور السمين . ولانشغاله بالبري ، التقط سليمان الصحن من يد العمة ووضعه على منضدة صغيرة موضوعة قبالته تقريباً .

كان الغريب يرتدي جزمة جلدية قصيرة ، وقميصاً أبيض من الساتان منشى ، بأزرار من اللؤلؤ الطبيعي ، وقد ألقى على كتفيه العريضتين جاكتة سوداء من الكتان الناعم ، وقد ارتسمت على شفتيه الحمراوين المكتنزتين ابتسامة باردة ، وقد وضع القلم الذي يراه على صفحة الوجاق المرمري وأخذ يأكل الكريما الباردة ، وخصلة من

شعره الفاحم السرح تتدلى على جبينه الأبيض الناصع ، وفي تلك اللحظة دخلت الفتاة الصالة مبتسمة له وهي تحمل صحنها الذي ملأته بالكريما .

كانت العمة تعبث بردائها القطني وتتأرجح على الكرسي الهزاز أمامه ، وهي تجلس هادئة ساقاً على ساق ، تنقل نظراتها المرتابة بين الغريب وبين ابنة أخيها ، لقد رأت في عينيها ابتسامة تخفي سراً مكتوماً قد أدركه الغريب بلمحة عينيه وهو يحني رأسه على الصحن لحظة دخولها ، فانبرت قائلة وهي تنظر نحوه :

- (كنت أريد أن أسألك عن سيدة من أقربائنا . . لا بد أنك تعرفها) .

- (من هي؟) .

- (منيرة بنت أحمد النقيب) .

- (آه . . أعرفها . . أعرفها . . طبعاً أعرفها) .

- (هكذا . . خطر في بالي أن أسألك عنها) . ثم ساد صمت وسكون في الصالة .

- . . . .

- (هل كنت التقيت بها . .) قالت العمة وهي تنتقل بعينيها بين الغريب وابنة أخيها .

- (ها . . إيه . . نعم . . نعم . . التقيت بها قبل مجيئي إليكم . . من مدة . . لا ألتقي بها كثيراً) .

- (من مدة طويلة؟ . .) .

- (لا . . ليست طويلة جداً) .

- (ولا قصيرة . .) قالت العمة .
- (ولا قصيرة أيضاً . . لماذا؟) .
- (كيف كان ذلك؟ . . وقد ماتت هي من فترة طويلة . .) قالت العمة .

توقفت الفتاة عن الأكل وألقت بالصحن والكريما المثلجة على المنضدة .

- (كنت أقصد هل التقيت بها قبل موتها . . وليس قبل مجيئك إلينا) .

هكذا وصوبت نحوه نظراتها بثبات ، إلا أنه لم يجد ما يقوله في تلك اللحظة ، فوضع الصحن هو أيضاً على المنضدة التي أمامه ، ثم وقف على قدميه وتناول بهدوء القلم الذي كان قد براه من غصن التوت وألقى به في زهرية أصص الزهور الموضوعة على قائمة الوجاق المرمرية التي قبالته ، وتمطى بجسده الرشيق الممشوق وذراعاه إلى الأعلى ، وتخطى بخطوات سريعة واثقة حتى وصل إلى النافذة العريضة التي تكشف من خلال الستائر المخمل الثقيلة المزاحة جانباً عن مشهد الحديقة في الظلام الأسود الحالك ، وقد أخذت الكلاب السلوقية تزمجر في وجهه بقوة ، تراه وتقترب منه ثم تتشمم حافة النافذة .

وحين حك شعره الفاحم ، خلف رقبته ، قال :

(لا أظن أني أعرف . . وليس من المعقول أن أعرف كل العراقيين في الخارج) . ومرر أصابعه الطرية الناعمة خلال شعره الكثيف الفاحم ، وابتسم للفتاة التي فغرت فمها وأخذت تنظر للعمة مندهشة . لقد

أدركت في سرها ، أن العمة عازمة على أمر ما ولكن ما هو؟ .

- (لكنك قلت إنك التقيت بها . . وبعد ذلك كانت صديقة لباهرة محمود الباشا التي قلت إنها والدتك) . رمت زوجة الغريب المنديل الذي بيدها على الطاولة التي أمامها ونهضت من مكانها مستأذنة .

- (أما ننام . . أنا متعبة؟) .

وضعت الفتاة صحنها الصغير الذي بيدها على المائدة ، وهي تنظر بعينين مندهشتين للزوجة التي أخذت في تلك اللحظة ترتقي درجات السلم المرمرية بهدوء ، وهي مرتبكة . واستأذنت في الحال ، من أنه حان وقت النوم وهي تنظر إلى الغريب الذي هرع خلف زوجته ، وقد احمر وجهه بعد أن رأى نظرات أهل المنزل المرتابة .

**

بقيت العمة وحيدة وهي تنظر بثبات متأملة في النار التي أخذت تخبو في الوجاق شيئاً فشيئاً ، وليس هنالك في الصالة سوى السكون الذي اقتحم المنزل برمته ، بعد أن غادرها الجميع إلى حجرهم وأطفئت أنوار الأدوار العليا واحداً بعد آخر ، ثم جاء سليمان ووقف قبالتها منتظراً منها الأوامر الأخيرة التي تلقيها عليه قبل مغادرتها إلى حجرتها كعادتها كل يوم ، وحين لم تكلمه بشيء أخذت بيدها قطتها وأخذت ترتقي درجات السلم المرمرية حزينة هادئة ، ودخلت حجرتها لتخلع ملابسها وتقف على الخوان وهي ترتدي ملابس النوم والبرنص المصنوع من القطن الأبيض المزئبر .

**

وقفت العمة صامتة أمام النافذة الطويلة وقد اكتست زجاجتها بطبقة خفيفة من الضباب ، كانت النافذة تسمح برؤية المطر المنهمر بغزارة بين آونة وأخرى ، ويضيء السماء برق أزرق باهت يتخلل الغيوم السود الكثيفة .

(من هو . .؟) هكذا حدثت نفسها بصوت مسموع . . «لقد كان سؤالي واضحاً . . لو كان من عائلة الباشا لكان عرفها حتماً . . كيف يكون من عائلة الباشا ولا يعرف منيرة . . حقاً من هو؟ . .» وضعت العمة قدحاً كبيراً من الزجاج السريع العطب مملوءاً بعصير الليمون على الخوان الخشبي الذي تعتليه مرآة مبرنقة ببرانق خشبية مفضضة ، وقد سالت على جوانبه قطرات من الماء البارد ، وكانت قطعة الثلج البيضاء واضحة وهي تطفو في العصير الليموني الأصفر الشاحب .

(لقد منحته إحساساً متعمداً بالطمأنينة طوال الفترة التي مكثها معنا ، وجعلته يعتقد اعتقاداً راسخاً أنه من طبقتي دون أن يشك ولو بمقدار قليل في أنني أشك فيه ، لقد تحاشيت أن أسأله أسئلة عامة ليشعر بأنه قادر كل القدرة على العناية بي ، وهو لم يكن يملك أياً من هذه) .

تنهدت العمة تنهدة قصيرة وأدارت وجهها نحو النافذة . (من هو . . ربما لا تكون وراءه أسرة ذات مقام ، ربما كان معرضاً لتساؤلات الحكومة ، أيكون لصاً؟ . . لقد اقتحم منزلنا في ليلة ممطرة وزلزل سكوننا . . من يكون؟ . . لقد تغير بوجوده كل شيء . . حتى المكان تغير . . لقد قلب كل شيء . . شيء مضحك . . رجل غريب . .

يشككني في حياتي . . حتى حياتي الماضية) .

أخذت العمة تقلب في الكتب المكومة في خوان المكتبة (أين قرأت هذا . . لص يدخل منزل سيدة يدعي أنه أحد أقربائها وهي لا تعرفه ، وتصدق أكذوبته من أجل أن يبقى معها ، وفي الصباح تجده قد رحل بعد أن سرق كل شيء في المنزل . .) .

(ألست مثلها؟) حدثت العمة نفسها وهي تحمل رواية صغيرة الحجم واستلقت على الفراش (ألست مثلها . . إنها تتواطأ مع لعبته وتسير معه حتى النهاية كي لا تفقده) . ألقت بالرواية جانباً (ما الضرر في الأمر . . لست قادرة على أن أصف شدة عجبي من اكتشافي من أنني أحبه . . وهو يظنني مغفلة . . وأنا لست كذلك . . أنا أعرف أشياء تختلف عما هو مألوف . . أشياء تماماً مختلفة . . وبعيداً عن مطامحي كنت غارقة في الحب أعمق فأعمق . . لدى كل دقيقة مكثها معنا . . ما فائدة الحياة؟ . . ما فائدة الزمن؟ وعدّ الساعات وتقلبات الفصول أو حتى القيام بأعمال عظيمة إن كنت مستطيعة أن أقضي وقتاً دون أن أشعر به معه . .) .

وضعت يدها الناعمة الرشيقة على جبينها وأخذت تتنهد بقوة في الظلام ، وقطتها تغرغر تحت الأغطية الوثيرة الدافئة .

(لقد غيرني) قالت ذلك بحسرة تعصر قلبها (أربعون عاماً . . آمنت وتمسكت . . وفي لحظة واحدة شعرت بأن كل ما آمنت وتمسكت به ينهار . . شيء مضحك أن أجد نفسي بعد هذه الحياة الطويلة مخطئة . . لقد غيبني سحره . .) .

انقلبت على الجهة اليمنى بعد أن أزاحت القطة من بين قدميها

ورفعتها إلى صدرها وهي تمسدها (ما هذا الانجذاب الذي أشعر به نحوه؟ . . كيف أحب رجلاً له كل هذا الإقبال على الحياة؟ . . ولا أقوى على مقاومة سحره . . حائرة ما الذي سأفعله . . أمر مروع . . أكتشف أنه لص مثلاً . . يسرق ما في المنزل ويتركني مخدوعة . . كسيرة القلب . .) .

**

وبعد أن ابتلعت قطعة الثلج الصغيرة الطافية في قدح الليمون ، عادت إلى النوم المضطرب المحموم . . طوال الليل . . أخذت تتقلب في الفراش نصف مغمضة وهي تتداول مع نفسها حقائق مخيفة مرعبة وأحلاماً وحشية . . كوابيس . . ولدى الفجر أيقظها صياح الديك القادم من الحديقة الخلفية من المنزل فنهضت من نومها ، كان شعاع الشمس الخافت يتسلل بطيئاً عبر النافذة المفتوحة وهي تنظر إلى النهر الذي كان يجري بسرعة بلونه الغريني القاتم . . فقالت بصوت مسموع تحدث نفسها :

- (إن النهر وهو يجري يعرف ما يريد) ثم حولت نظراتها من النافذة إلى المرآة ونظرت في وجهها وقالت : (أما أنا . . فلا . .) .

ارتدت العمة حذاءها الفضي المرصع بالأصداف ، ورمت على كتفيها الفراء ، وأخذت تسرح شعرها الكستنائي المصطبغ بالحناء على المرآة وهي تنظر بعينين متعبتين إلى آثار التعب الذي لحقها من التفكير الذي داهمها الليلة الفائتة ، ثم غادرت حجرتها وهي ثابتة ، لقد تحملت الحياة بكثير من الشجاعة والصبر ، ذلك التحمل الرصين المرفوع الرأس . وحين بلغت الصالة . . أزاحت الستائر لصباح رائق

كهذا الصباح ، وتطلعت إلى الحديقة الشائبة بضباب خفيف يتلوى بين صفوف الآس وأشجار السرو الأخضر المدبب الرؤوس ، كانت طيور الزرياب المرحة تحط وتعلو بجلال على الأشجار العارية المبللة .

**

جلسوا صامتين وهم يتحلقون حول الوجاق ، كانت العمة تحدث بنظرها للأمام وبشكل مستقيم وقد اكتسى وجهها بنظرة حادة ، وشفتاها الحمراوان مكورتان قليلاً ، كان من السهل عليها إدراك ما كان يعانيه من مشاعر عدم الارتياح والرضا ، هذا اليوم وقد أطرق رأسه إلى الأسفل ثم رمقها بحدة .

لم تكن مشيته وحركاته خفيفة كما كانت كل يوم ، وحين ألحت عليه العمة لتقديم الطعام اعتذر بحجة أنه تناول كمية من الطعام في الصباح الباكر في حجرته ، وأخذ يحك بمؤخرة رأسه بأصابعه البيض الرقيقة ولم ينطق بكلمة ، لم تكن نظراته ودية هذا اليوم .

كان الجو فاتراً يخلو من الإثارة ، وفي الخارج كانت هنالك ثلاثة غربان تحلق فوق أجمة الصفصاف الكائنة قرب البوابة الخارجية ، أطلقت نعيبها وتوجهت نحو (العرصات) .

نهضت العمة من المائدة ، كانت الفتاة تتحدث ، وقد زال ارتباكها من الغريب ، وتلاشى خجلها واستدار هو ليحدثها بصورة حنونة بينما أشعل غليونه واستمر ينفث الدخان الأزرق الباهت وبادلها نظراتها بنظرة ودية ، شعرت العمة أنها إشارة لشيء خفي ، فاحمر وجهها وأخذت تنضح حبات العرق على جبينها ، كان صدرها يبرز تحت ردائها الرمادي وأخذت الفتاة تطلق ضحكتها الخافتة

المكتومة فابتسم الغريب لها ، لكنه لم يضحك وكأنه يفتقر إلى الطاقة لما هو أكثر من الابتسام فأثار شكوك العمة .

لم تهبط نازك من حجرتها إلا بعد ساعات طويلة ، وحين جلس الجميع كانت العمة تختلس منه ما حدث ، وبدأت تلقي عليه نظرات غريبة متشككة ، فشعر هو بعدم الارتياح ، أدركت العمة أنها لا يمكنها أن تصلح ما فسد ، وأحست أن الأكذوبة الطويلة قد تحطمت كتحطم الزجاجة بعد افتضاحها :

- (هل تتنزه في الحديقة؟) . قالت العمة .

- (لا إنها باردة) .

وبعد أن تناولوا الغداء دون كلام تفرقوا إلى حجرهم ، وفي الساعة الخامسة من العصر بدأ البرد يشتد في الخارج ، هبطت العمة إلى الصالة فوجدته يجلس مع زوجته دون حراك . جلست أمامه زمناً طويلاً صامتة ، كانت قد أحست بالبرد والنار موقدة في وجاق الصالة ، كانت خدودهم متوردة من فعل النار المتلامعة قبالتهم ، وبين الحين والآخر كانت تتحرك لتغير من وضع ذراعها ، أو لتمسح جبينها بالمنديل الأبيض المعطر ، وكان الغريب ساكناً ، قد أصيب بالزكام ، وأصبح صوته أشد سحراً من ذي قبل وأكثر فتنة ، فقد أحست إحساساً طاغياً بالثراء وهو يلمع أمامها بملابسه الأنيقة ، وطراوة وجهه العذبة ، وقد جعلتها ساعة السكون هذه مدةً طويلة واهنة وهي تنظر إليه بعيون قلقة معذبة ، وكأنه يريد أن يمنحها ذكرى عميقة لحياتها التائهة .

**

هبطت الفتاة من حجرتها لتلتحق بهم في الصالة المضاءة ، وقد ارتدت ملابس زاهية ، فبدت ناضجة ، كان عالمها الصغير يتفتح على عواطف كثيرة ، وعند ساعة الشاي هذه ، كانت تحس بضغط العالم الخارجي عليها قوياً قاسياً ، لقد أرادت أن تراه وأن تشعر بوجوده لتطمئن إلى أنها قامت بالأمر الصواب فيما يخصه بعد كل شيء .

لقد بدأت الفتاة مرة أخرى تشعر بحياتها وهي تسير سيراً طبيعياً ، بعد أن شعرت فجأة بالمحافظة على روحها وعلى فتنتها التي كادت تخبو في ظلام المنزل الذي يسير سيراً على إيقاع عقارب الساعة البطيء ، وقد أضحت تقلب كل يوم أحذيتها الملونة في خزانات حجرتها وهي تحيا في زمان خالد سرمدي دون فواصل ، لتشعر شعوراً أبدياً بهذه الحمى الخفيفة العذبة تداهمها كلما تهبط إلى الصالة معه ، مقلبة أمر ما سيفعله ويقوله عنها وهي تتحسس بأناملها الفتية شيفون وحبيبات فستانها وخرزات عقدها التي تتشابك بشكل لا نهائي مع زهور العائلة الذابلة المكومة قرب سريرها كذكريات تدوم ، تتحسسها في العائلة التي قضت نحبها أجيالاً بعد أجيال ، وفي داخلها ينتفض على الدوام شيء يصرخ بها لاتخاذ قرار أي قرار ، لقد كانت تريد لحياتها أن تتخذ شكلاً نهائياً وبسرعة وهي تشعر بشكل تراجيدي حزين أن هناك متطلبات لا يمكن نكرانها ، ولا يمكن تجاهلها ، أحستها بفطرتها وببراءتها التي لم تشوهها الحياة التي تمور في الخارج ، وينبغي بشكل أكيد لواحدة من هذه القوى العاتية التي تصرخ بها أن تكون قريبة منها تشجعها على اتخاذ قرار .

(٨)

تحركت العمة بجلال صامت ، كانت تريد دون إرادة منها معالجة الأمر ، بعد أن أحست أنها قد خسرت كل شيء ، كانت تريد إصلاح ما أفسدته بسؤالها ، لقد أحست إحساساً طاغياً أنه لن يمكث طويلاً بينهم بعد افتضاح أمره .

- (لقد استعجلت . . لقد استعجلت) .

هكذا حدثت نفسها وبادرت نحوه بابتسامة ووداد .

- (أين نتعشى هذا اليوم؟) .

- (هنا طبعاً) . قال بصوت فاتر وقد ذهب النشاط الذي كان يتفجر من صوته فيما مضى .

- . . . .

- (حسن . . ماذا يعجبكم . . كي أوصي سليمان بإحضاره؟) .

- . . . .

- (روبيان؟) .

- (أي شيء) .

- (هل نسهر هذه الليلة؟) قالت العمة (نصنع سهرة كتلك

السهرة التي صنعناها أول يوم دخلت فيه المنزل) .

- (أنا لن أسهر) . قالت نازك وهي تنظر صوب النافذة .

- (أنا متعبة بعض الشيء) . قالت الفتاة وهي تنظر نحو الغريب وكأنها تعمل لصالحه .

- (كيف سنقضي الليل؟ . . أنا أرى أن السماء تنذر بالمطر . . ألا ترى معي ذلك؟) .

- . . . .

- (أنا آسفة . . إن تصرفت تصرفاً يسيء لك الليلة الفائتة . . لم أقصد . .) قالت العمة وقد خنقتها عبراتها .

- (لا عليك . . لا عليك . . لم تتصرفي بما يسيء لي . . ولكني مصاب بالزكام . . هذا كل ما في الأمر) .

- (هل أجلب لك دواء؟) . قالت الفتاة وهي حزينة خائفة .

- (لا . . لا أتناول دواء . . أنا أشفى هكذا دون دواء) .

ثم تكلم بصوت منخفض وهو يتنهد مغيراً لهجته :

- (سنلعب الليلة لعبة المناديل . . أترغبون بذلك؟) .

وظهر على وجهه الجد والتصميم هذه المرة ، ولكن لم يكن بذلك النشاط والتدفق القديم ، بل كان صوته مهزوزاً وضعيفاً .

- (فكرة رائعة . . فكرة رائعة) . قالت الفتاة .

- (ألا نتعشى أول الأمر؟) قالت العمة .

- (نعم . . نتعشى أول الأمر) .

- (روبيان . . ونبيذ . .؟) .

- (هي روبيان ونبيذ) .

- (سنصنع حفلة كتلك الحفلة الرائعة) .
- (نعم) .

**

نهضت العمة من مكانها واتجهت نحو الرواق الشرقي للمنزل ، نادت على الشوفير الذي كان جالساً مع سليمان في الردهة قبالة مدفأة صغيرة موضوعة في الوسط ، وقد خلع طاقيته ووضعها على ركبته ، أمرته العمة بإحضار الخضار الطازجة من السوق ، وروبيان ، وزجاجة نبيذ .

كانت العمة مبتهجة ، والغبطة تطفح من عينيها ، سعيدة لأنها شعرت بأنها لو استطاعت أن تصنع حفلة رائعة كتلك الحفلة ، ستعيد الثقة في نفس الغريب ، وأنها ستحافظ عليه ولن يضيع .

عادت مسرعة إلى الصالة حيث كان الغريب يحدث ابنة أخيها بصورة مثيرة : وقف وقد اتكأ على الجدار براحة يده ووقفت الفتاة أمامه مباشرة تحدق بعينيه ، بينما كانت زوجته منشغلة ببرد أظافرها غير مبالية بما يدور حولها .

- (سنتعشى في صالة الحفلات . . أليس كذلك؟) قالت العمة .
- (لا بأس . . ولكن ألا يقتضي أن نرتدي ملابس حفلة؟) .
قال الغريب .
- (نعم . . نعم بالتأكيد) .

صعد الثلاثة إلى الدور العلوي بسرعة ، بينما بقيت العمة في الصالة وحيدة تنظر وهي تتأمل النار القصيرة اللهب ، ثم قامت من

مكانها لتسدل ستائر النافذة .

**

كانت في البعيد ، غيمة كبيرة معزولة تدفعها ريح لينة ، انتشرت فجأة في السماء بعد أن طوقت الفضاء بحزام بخاري رفيع ، ملونة الأفق بحمرة غسقية مخيفة . فساد الجو هدوء لا نظير له ، وانتصبت أعالي الأشجار في الظلام بسكون لا يعكره أدنى اهتزاز ، ومن ثم دوت السماء بدوي هائل شديد جعل المنزل يرتج بأجمعه ، وانقذفت رشقات الأمطار الغزيرة تدفعها ريح عاتية ، لقد كانت السماء كامدة يهيمن عليها لون مريض ، وبين آونة وأخرى ينيرها نور وهاج ، سرعان ما يأتلق وينطفىء على صوت رعد هائل ، فهيمن على العمة ذهول صامت وهي تتأمل المشهد بمرارة وأسى ، لم تكن العمة قادرة على تكوين فكرة واضحة عن وضعها ، وبينما كانت تنظر في الفضاء القاسي المرعب هبط الغريب وزوجته بملابس عملية أكثر منها ملابس حفلة ، كان يرتدي بنطالاً من الجوخ أخضر زيتوني ، وجاكتة من الصوف الثخين - سبورت - بياقة صغيرة مقلمة بخط رفيع قاتم ، وقد عقد ياقة قميصه الساتان الأبيض بدبوس دون رباط ، وقد شمت الفتاة رائحة زيت الشعر المعطر وقد انبعثت منه ، بينما ارتدت زوجته تنورة مروسة أنيقة بلون رمادي وجاكتة طويلة بلون أسود مصنوعة من الكتان المبطن ، ووضعت على رأسها قبعة طويلة .

**

انتابت العمة مشاعر غريبة تلك اللحظة وهو يجلس أمامها هادئاً ، كانت قامته منحنية قليلاً ، وذراعه اليمنى تتدلى من مسند

الكرسي برشاقة ، وقد لمع في بنصره خاتم الألماز الأنيق ، فراحت تحدق العمة في وجهه متملية قسماته الثابتة وكأنها تراه للمرة الأولى ، لقد كان الغريب أكثر فتنة وبهاء من ذي قبل في صمته وهدوئه . بينما كانت هي غارقة في هذه الرؤية نهض الغريب وجعل العمة تميل برأسها قليلاً باتجاهه ، كان وجهه في تلك اللحظة يشع وقاراً ورصانة افتقدتهما شخصيته في الأيام السابقة .

دخلت الفتاة ترتدي ملابس فاخرة : جاكتة بأكمام فضفاضة من النسيج الناعم المحبوك حبكاً دقيقاً ناعماً ينتهي بحلقات ذهبية ، وصديري من الحرير بالغ الأناقة والرفعة والثراء يكشف عن صدرها الأبيض الناعم ؛ وقد تشابك شعرها وسط نهر من الجواهر حول رأسها في حلقات تشبه السوسن ، وكانت عيناها البراقتان حانيتين ، تتجهان في الخط المعاكس لخط رؤية عمتها وهي ترقب عيني الغريب الذي جلس على حافة النافذة .

**

لقد داهم العمة خدر وإحساس بالخمود على الفور ، ثم خفق قلبها قوياً بين أضلاعها وارتجت ركبتاها ارتجاجاً قوياً واخترق كيانها كله رعب لا يقاوم :

– (ماذا يقصد . .) لقد استطاع أن يشوشها تماماً ، وفي تلك اللحظة تقدم لابنة أخيها بخطوات ثابتة مستقيمة وتناول يدها بصورة مهذبة ليجلسها على الكرسي الموضوع أمام الوجاق ، وهو يبتسم تارة لها وتارة أخرى لزوجته .

تنهدت العمة بينما كانت تتأمله ، لقد سيطر عليها كسل

خالص ، وهي تحت تأثير ألف فكرة لا رابط بينها ، لقد غرقت تحت آلاف الشكوك ، دون تأمل ، ودفعة واحدة وجدت نفسها في دوامة يأس قاتل ، كانت تريد بقاءه تحت أية صفة أو صورة ليبقى وحسب دون أن تعرف حقيقته .

(ماذا أفعل بحقيقته؟ . . إن حقيقته الوحيدة هو أن يبقى بيننا . . هكذا أراه كل يوم وأشعر بجسده يخفق . . وروحه تتسامى أمامي) .

هكذا حدثت نفسها وهي تراقبه بعينين حزينتين متألمتين وهو يتحدث بهدوء مع ابنة أخيها ، لقد كانت نار الغيرة والحب القاسي يلتمعان في عينيها الدامعتين ، فقالت والعبرات تخنقها :

– (ألا نصعد إلى الدور العلوي؟! . . سيكون العشاء جاهزاً) .

لم يلتفت لها أحد أول الأمر ، وكأنها قد أهملت إهمالاً كلياً ، إلا أن الغريب استدرك الأمر بعد أن ضحك ضحكة عالية مع ابنة أخيها والتفت إليها :

– (كما تشائين) .

– (إنهم يعدون الروبيان كما أمرتهم . . وجلبت لك نبيذاً) .

كانت تحاول بهذا الأمر إرضاءه وهي رصينة مرفوعة الرأس ، لم تكن كرامتها تسمح لها أن تفعل شيئاً أكثر من هذا . نهض الأربعة يتقدمهم الغريب وساروا بخطوات بطيئة هادئة ليرتقوا السلم المرمري إلى الدور العلوي ، كان سليمان يعد المائدة ، والنوافذ مرخاة الستائر ، وكانت الحديقة داكنة مرعبة تتحرك الأشجار فيها حركة دائمة كالأمواج في دوي شديد ، ويتساقط من أعاليها مطر غزير لا ينتهي ، حيث تتهاوى الغيوم الرمادية على رؤوسها بشلال أبيض من الماء ،

وكانت أشجار السدر المعمر تهز أعناقها الطويلة كالأشباح ويتصاعد هدير مبهم لرعد بين الغيوم الجامدة .

هرع الغريب ليسدل الستائر ، فهرعت العمة لتساعده بعد أن غمرها رعب خانق .

- (أي طقس هذا اليوم!) . قالت العمة .

- (شبيه بطقس أول يوم دخلت فيه منزلكم) . قال الغريب .

- (طقس مرعب . ها) .

- (في مثل هذا الطقس تكون الأحداث العظيمة) .

حدقت العمة في عينيه تماماً ، وكأنها تلمح في هاتين العينين القانيتين شيئاً عصياً على التفسير .

- (خذي العظماء مثلاً لا يموتون إلا في طقس مخيف كهذا الطقس . هذه تجربة) .

**

جلس الأربعة على المائدة المثقلة بأنواع الطعام ، وكان الروبيان في منتصف الطاولة البيضوية المصنوعة من السنديان .

وضع في صحنه شيئاً من الطعام ، ثم دار سليمان بزجاجة النبيذ ليملأ الكؤوس التي أمامهم وأخذ الجميع يأكل دون شهية ، يتوقفون قليلاً ثم يشربون النبيذ بصورة تدعو للاستغراب ، وأكثرهم شرباً له الفتاة التي آلت على نفسها أن لا تذوقه بعد حادثة الفلفل ، بينما كانت العمة ترمقها بصورة تأنيبية .

- (هذا النبيذ له طعم خاص) . قال الغريب .

- (لا يحمل نكهة تفاح؟) قالت العمة وهي ترفع عينيها اللتين

احمرتا للذوعته .

- (نعم . . نبيذ تفاح) .

- (أحسن من النبيذ الذي احتسيناه في المرة السابقة) . قالت الفتاة وكأنها تبحث عن عذر يبرر لها ما تفعله .

**

كان الغرامفون في الزاوية يجأر بصوت المطربة سليمة مراد ، والريح تدوي في الخارج بصوت موحش . وبعد أن انتهى الجميع من الأكل ، نهض الأربعة نحو الأرائك الحريرية الكائنة في الزاوية القصية من الصالة وقد دارت عليهم أكواب الشاي الساخن . غير أن الغريب قال :

- (لا أريد شاي . . ألا يوجد في المنزل قهوة بالهيل؟) .

قفزت العمة من مكانها ونهضت الفتاة في وقت واحد وصرختا (قهوة . . قهوة) هبط سليمان السلم بصورة سريعة وكأنه ينكفىء على وجهه وهو يصرخ من غير أن يحدد الاتجاه (قهوة . . . قهوة بالهيل . . بسرعة) تركت الفتاة كوبها والعمة كذلك على الطاولة الدائرية التي أمامهم .

قالت العمة :

- (أنا كذلك أريد أن أجرب القهوة) .

نهضت الفتاة من مكانها وهبطت السلم بسرعة ، وكانت العمة ترمقها مندهشة تحاول أن تخمن السبب الذي استدعاها للهبوط إلى الصالة الدائرية في الدور الأسفل ، بعد دقائق صعدت وهي تحمل في يدها غليونه وعلبة تبغه ، فابتسم لها الغريب بصورة أحزنت العمة ،

كانت قطتها السوداء قد قفزت في حضنه بينما كان يعب فوهة الغليون بالتبغ الذي فاحت رائحته الثقيلة اللاذعة ، وغطت فضاء الصالة بصورة قوية ، وبعد دقائق قليلة صعد سليمان وهو يحمل صينية من الفضة المنقوشة ، وعليها أربعة فناجين من القهوة الشذية الرائحة .

كان دخان الغليون الأزرق الخفيف يتصاعد على شكل حلقات في الصالة الدافئة ، والعمة تمسح جبينها بمنديل أبيض تضوع منه رائحة طيبة .

- (ألا نبدأ اللعبة؟) .

كانت العمة تحاول أن تستميل عواطف الغريب عن طريق معرفتها منديله وهي تشمه ، آخر حل في يدها .

- (نعم اجلبي لنا الصندوق الوردي) .

انتشل الغريب منديله من جيب جاكيته الصغير ، الفتـ . . .اة أيضاً . هرعت زوجته لتجلب منديلها .

دخلت العمة وهي تحمل في يدها الصندوق الحريري بلونه الوردي الفاتح ، وقد وضعت فيه منديلها ووضعته على الطاولة ، ثم خرجت متجهة إلى حجرتها لتجلب الشمعدان ، وبعد ثوان جاءت بالشمعدان وقد تراقصت نار شمعاته القصيرة المختلجة .

- (لا . . ليس لنا حاجة بالشمعدان . . سنلعبها هذه المرة بالظلام) .

- (بالظلام؟) قالت العمة .

- (نعم بالظلام . . أفضل كما يخيل إلي) . قالت الفتاة .

تأخرت نازك في حجرتها ، وظل الثلاثة يراقبون خروجها طويلاً ، وحين عادت كانت تمسك بمعطفها وهي تقول :

- (أشعر بالبرد . . فجلبت معطفي) .

وضعت نازك منديلها في الصندوق الحريري ، وجلست قبالتهم ، وهي تنظر نحو زوجها الذي قام من مكانه بخفة ، وقد عاد النشاط إلى وجهه بصورة مفاجئة وهو يضحك بصوته الرنان ، مما أراح العمة تغيره المفاجىء وهو يطفىء الشمعدان بيده .

غطى الصالة ظلام دامس تماماً ، ولم يبق غير صوته الهادىء وهو يجلس أمام الصندوق .

ساد الصمت في الصالة الدافئة ، ضحكت الفتاة أول الأمر ضحكات قصيرة مكتومة . حاولت العمة أن تتماسك إلا أنها لم تفلح ، كانت مندهشة وهي محاطة بالظلام بلا حدود ، سمعت قرقعة غريبة عالية الصوت كما لو كانت قرقعة صادرة عن رزمة كبيرة من مفاتيح ، اندفعت أمامها صورة شبح شديد السمرة بحركة متوازية متناغمة بسرعة ، وبعد أن اقترب منها شعرت بأنفاسه الحارة اللاهثة على وجهها بصورة يصعب تمييزها أول الأمر ، فأخذ قلبها الضعيف ينبض بين أضلاعها ، وارتعشت ركبتاها بصورة سريعة في الظلام الصامت تماماً من غير صوت هذه المرة ، وما إن اختفى الشبح الذي كان يقترب منها وتلاشى في السواد الذي يحيط به من جميع الجهات ، حتى شعرت بشكل لا يقبل الشك باندفاعة هائلة خلال المكان ، محدثة صوتاً عميقاً أكثر إثارة للدهشة من ذي قبل ، وبعد أن بددت العمة مخاوفها ، استرجعت أنفاسها بصعوبة ، وشعرت

بخطوات تتقدم إلى الأمام ، فركت عينيها أول الأمر وهي تحاول أن تميز وسط العتمة الحالكة أثره دون جدوى ، فقالت بصوت خفيض :

- (أين أنت؟ ماذا تفعل؟) .

ضحكت ضحكة قصيرة . وللمت أطراف ردائها فظهر أمامها الخيال مرة أخرى ، واختفى فجأة .

انحنت قليلاً وتقدمت برأسها للأمام حين سمعت صوت ابنة أخيها قريباً منها وهي تقول :

- (هل تمزح؟ . . لقد تأخرت) .

أخذت العمة تمسح جبينها بيدها ، بعد أن شعرت أن الأمر مثير للشك وبصورة مكشوفة ، فداهمتها فكرة في الحال ، مما جعلتها تنهض من مكانها وتتقدم للأمام فكادت تعثر بالطاولة التي تحمل صندوق المناديل التي أمامها ، وهي تسمع خطى متواصلة في الطريق المظلم الطويل ومن ثم هيمن صمت ثقيل ، ساد المنزل كله .

- (سأشعل المصابيح) .

وما إن أنارت الفتاة الصالة بالمصابيح ، حتى رأت العمة واقفة قربها وقد قلبت صندوق المناديل على الطاولة .

لقد اختفى الغريب وزوجته ولم يتركا أثراً في الصالة على الإطلاق ، استدارت العمة أولاً ثم الفتاة نحو باب حجرته فوجدتاها مفتوحة على مصراعيها .

حدقت الفتاة بعينين شاخصتين طويلاً في وجه عمتها الصامت الخالي من كل تعبير ، لتقرأ بيأس ما خفي من الأمر عنها ، لم يكن قلبها البريء بقادر على حل هذا اللغز في تلك اللحظة ، حاولت إلا

أنها لم تفلح ، وحينئذ هرب الدم من وجهها وشحبت شحوباً عاجياً أمام عمتها .

تمسكت بحجر الدربزون البارد المتصلب براحتي يديها الطريتين المرتعشتين ، وأسندت عليه ركبتيها ، كان قلبها الصغير ينبض بقوة بين أضلاعها ، فنطقت بعد نفاد صبر بشفتيها المهتزتين بكلمات خرجت بصعوبة :

– (أوه . . هل يمزحون معنا . . عمة . . ربما هبطوا إلى الدور السفلي) .

اندفعت العمة حاسرة الرأس وقد رمت الفراء من كتفيها على الأريكة في الحجرة التي كان يشغلها الغريب وزوجته . فغمرها الدفء المنبعث بحدة من المدفأة الزيتية الموضوعة بجانب الباب ، لقد اختفت حقائب سفرهم ومعاطفهم وملابسهم من الشماعة ، لقد اختفت أدوات الزينة من الخوان ، ما عدا زيت الشعر المعطر الذي نسيه الغريب موضوعاً على الرف ، وكانت أبواب الدواليب مفتوحة ، والشراشف متناثرة على أرضية الحجرة ، وكل ما في الحجرة من فوضى واضطراب يكشفان الأمر بشكل لا لبس فيه ولا غموض .

**

وقفت الفتاة مرتعدة وقد تملكها الخوف كلياً في الصحن البارد تتطلع باضطراب ورعب ، وهي تقلب وجهها حائرة .

انتفض صدرها المراهق الصغير مندفعاً مثل شمام من فتحة قميصها المفتوح الأزرار ، كانت تشهق بقوة وهي تلهث ، كانت تراقب العمة التي هبطت السلم المرمري بسرعة نحو الدور السفلي ومن

الردهة الحولية التي تتوسط المنزل ، اندفعت نحو الصالة الدائرية التي أخذت تبرد بعد أن خمدت نار الوجاق ، وأخذت تدور لا تعرف ماذا تفعل ، كانت مترددة بين أن تندفع نحو الباب أو تزيح الستائر وقد أقعدها الخوف واليأس معاً .

بيد أن كلمات سليمان التي لفظها أمامها كانت لا تقبل الجدال .

- (خانم . . خرج الغريب وزوجته وهما يلبسان معاطفهما المطرية ويحملان الحقائب والمظلات . خرجا من الباب بحذر وهدوء . .) .

أخذت يدها تفتر شيئاً فشيئاً وركبتاها ترتعشان . جلست على الأريكة في الصالة الباردة وهي تحدق في النار الخافتة في الوجاق .

هبطت الفتاة ببطء شديد ، كانت أقدامها المهتزة لا تقوى على حملها .

كان جو المنزل رمادياً شاحباً والرطوبة تتسرب من الأبواب المفتوحة . وقفت منتصبة أمام العمة في المكان الخافت لتستوضح منها الأمر ، دون أن تنطق بكلمة . إلا أن العمة فهمت ذلك ورفعت عينيها الدامعتين نحوها ، وبهدوء غيرت لهجتها ، بعد أن توقفت عبرة في حنجرتها ، وقالت بصوت غالبه الحزن :

- (أعرف . . إنه أمر مروع . . إن الأمر أبعد من مجرد التفكير فيه وإسداء النصائح . . قد يكون الأمر كذلك . . فأنا أدرك أن الإنسان يتعرض في حياته للكثير من المواقف اليائسة . . وقد تعرضت عائلتنا للكثير في حياتها . . ولكننا كنا نقاوم بعناد ونفعل ما بوسعنا . .) .

اختنق صوت العمة تماماً . . وكانت العبرات تتوقف في حنجرتها . . لقد كان كلامها واضحاً لابنة أخيها .

إن الرجل الذي اقتحم منزلهم في ليلة ممطرة غادر دون أن يترك ملاحظة أو كلمات وداع .

تملك وجه الفتاة حزن شديد ، وقد أطبقت فمها بقوة وزمت شفتيها الراعشتين ، ثم أخذت تصر أسنانها ، بيد أن العمة لم تستطع أن تخمن ما كان يدور في ذهن الفتاة بالضبط .

**

انطلقت الفتاة مرعوبة خائفة ، انفجرت باكية ، تبعتها العمة وهي تلهث إلى الدور العلوي واقتحمت عليها الحجرة التي كان يشغلها الغريب وزوجته .

كان جو الحجرة فاتراً ، يخلو من الإثارة ، لقد تناثرت على الأرض أوراق المقوى والعلب البلاستك ، وكانت الجوارير الفارغة مرمية على الأرض ، الشراشف كذلك ، الطاولات مقلوبة ، بينما كانت الوسائد الحريرية والأغطية الصوفية متناثرة على الأرض المفروشة بالسجاد .

أخذت الفتاة تبحث بشكل يائس وهي تمد يديها في أدراج الخوان ، كانت أزرار قميصها مفتوحة ، وشعرها منكوشاً ، ووجهها وحشي القسمات ، لقد ارتاعت عمتها إبان ذاك ، بل إن مجرد النظر إليها وهي على تلك الحالة والهيئة المرعبة كان أمراً قاسياً .

**

حاولت عمتها التماسك أول الأمر أمامها وهي تحاول أن تثني جسمها أو تركنه إلى الجدار ، أغلقت الفتاة ببطء عينيها ، كانت الدموع الغزيرة تبلل وجنتيها وهي تتنفس بصعوبة .

كان سلوكها مع عمتها فظاً قاسياً وهي تترنح حين تحدثها للأمام

وللخلف ، حتى سقطت بين يديها من الإعياء ، حملتها العمة بمساعدة سليمان الذي كان يركض خلفها مرتجفاً إلى حجرتها ومددها على الفراش ، ثم نادت الشوفير .

هبط سليما السلم وهو يتأرجح في الهواء ليأتي بالشوفير .

ظلت العمة تفرك أصابعها باحثة في الظلام عن قلنسوة أو غطاء لرأسها .

ارتدت جزمتها الطويلة السوداء ، وأشعلت فانوسها الكبير الذي التقطته من الدهليز بعد أن نظفته مما علق به من غبار ، وبعد دقائق دخل الشوفير الصالة وهو يلهث .

**

خرجت العمة وراء الشوفير مترنحة في الظلام الدامس ، كان المطر ينهمر بغزارة ، وقد حملت فانوسها وأطلقت مظلتها التي تناولها الشوفير من يدها واصطحبها حتى صعدت في السيارة .

كانت الحديقة الأمامية مظلمة ، وكانت الكلاب السلوقية واقفة لدى البوابة الخارجية تتنصت وتنبح ، وصوت الحارس في تلك اللحظة كان خشناً يعلو في سكون الليل وهو يفتح البوابة الخارجية للسيارة التي بلغت الحاجز الواقع قرب جوسقه .

أنزلت العمة زجاجة نافذة السيارة الجانبية وسألت البواب الكردي الذي كان يحمل على كتفه غدارته ، عن الغريب وزوجته ، بينما كانت قطرات المطر الكبير تنهمر سريعة من على طاقيته المصنوعة من المشمع إلى الأرض . فأجابها :

– (رأيته هو وزوجته قبل نصف ساعة وقد طرقا عليَّ نافذة

جوسقي وأمراني أن أفتح لهما بوابة المنزل . . كانا يرتديان معاطف مطرية ويحملان بأيديهما المظلات ، وكان قطك الأسود خانم . .) .

– (ما به قطي؟) قالت العمة .

– (كان قطك الأسود يتبعهما وهو يموء . . لقد كان ملطخاً بالطين والماء) .

كان وجه البواب الأسمر مغسولاً بالماء البارد ، وهو يضع يديه في جيوب معطفه العميقة ، ويحدثها بصوته المبحوح ، وبخار الماء يتصاعد من فمه ويتكاثف في الهواء .

– (قطتي . . كيف؟ . . ألم يخبراك الغريب وزوجته شيئا؟) .

– (لا واللّه خانم . .) .

– (طيب) .

– (ما أعرف وين راحوا . .) .

(٩)

انطلقت السيارة مسرعة في الظلام ، كان المطر ينهمر من الغيوم تدفعه الرياح العاتية ، وقد صمتت العمة واكتسب وجهها الجامد هيئة جادة ، تبحث في الظلام عن شبحي الغريبين وهي تتطلع بين الأشجار السود المغروسة يمين الشارع ويساره .

كانت تميز عبر شعاع المصابيح الأمامية نسغ الشجر الدبق ينز من اللحاء ، وقد عبقت رائحة الخضرة التي فاح شذاها مع الهواء الرطب في الفضاء المبلل بالماء المقذوف بقوة .

وحين انعطفت السيارة الفضية في الشارع العام ، ارتاعت العمة من مشهد الليل الصاخب ، هنالك عشرات السكارى وسط الليل يترنحون دون انتظام بملابسهم المتهرئة نصف الممزقة ، وهم يحملون زجاجات الخمور . وكانت هنالك مجموعة أخرى من السكارى والمشردين يقفون عند الرصيف يصفرون للنساء نصف العاريات الواقفات في البرد ، وهن يتأبطن محجر شرفات الطوابق العليا في الفنادق الرخيصة . كان بعض منهم يبحث بين جذوع الأشجار وبعض يجلس على مصطبات وسخة تركت على خشبها الصلب

بقايا علب الأكل المصنوعة من ورق المقوى ، كان بعضهم يقف مستنداً على الجدران السود من دخان زيت الطبخ وبعضهم يتكىء على أعمدة الهاتف .

وكانت هنالك مجموعة تدخل إلى الملاهي والخمارات ، بينما كانت تنطلق من أبوابها المفتوحة الموسيقى الصداحة العالية لجذب الراقصين .

**

انعطفت السيارة الفضية يساراً ودخلت في الشارع المحاذي للنهر ، كانت الأزقة الفرعية يصعب اجتيازها بسبب الشجار والمعارك التي كان يصل بعضها إلى التقاذف بالزجاجات الفارغة ، أو الطعن بالسكاكين ، وبين مكان وآخر كنت تصفر في الرياح الباردة أصوات عيارات نارية ، وهنالك أصوات صياح وصراخ تأتي العمة من الشوارع المظلمة والأزقة الضيقة .

ومن الزاوية المعتمة للشارع الضيق الذي يمر بين البنايات الإسمنتية العالية ، اندفع بضعة أشخاص باتجاهات مختلفة . كانوا يرتدون ملابس متهرئة ممزقة ، وكانت صدورهم مكشوفة للريح الباردة ، يحملون بقبضاتهم السكاكين القصيرة الأنصال تلمع في الضياء المنبعث مع مصابيح الأعمدة الكهربائية ، يركضون بصورة مجنونة ويزعقون بأصوات متوحشة ، وهم يتبادلون الشتائم بصورة مقذعة .

كانت العبارات الحادة غير المحتشمة تخرج سريعة من أفواههم الكبيرة المفتوحة التي تكشف عن أسنان مخلوعة وهم يلهثون .

وقد لمحت العمة تحت ضياء الشارع مجموعة مسلحة من الشرطة

ببزاتهم الكاكية وهم يقتحمون حانة صاخبة ، تتعالى منها الأصوات العالية ، وبالقرب منها ثمة ملهى صغير متوهجة بوابته بالأضواء الملونة الشديدة السطوع ، وقد أخذت تتطاير منها زجاجات البيرة والكراسي المقشderشة ، ثم هرعت الراقصات نصف عاريات وهن يتصارخن بأصوات داعرة ويتبادلن كلمات إباحية .

**

وعند منعطف الطريق المؤدي إلى العرصات ، كانت هناك امرأة سمينة ممددة بلحمها الربل العاري على الإسفلت ، كانت ترتدي تنورة قصيرة ضيقة كشفت جواربها الممزقة عن أفخاذها البيض الملتصق بعضها مع بعض ، وكان صدرها عارياً مكشوفاً للريح الباردة بعد أن تمزق الستيان تماماً ، كانت تمسك بيدها الدامية زجاجة خمر محطمة ، وهنالك خيط من الدم يسيل على طول ذراعها الأبيض الربل . لقد أحنت رأسها للوراء تحوطها بركة من الدم المتجمد ، وإلى جانبها انفتحت حقيبتها الجلدية الحمراء وقد انتشرت علب الزينة الملونة وورق النشاف والأمشاط العاجية على الأرض .

قال الشوفير بعد أن وضعت العمة يدها على عينيها . .

- (لقد تعرضت للطعن بالسكاكين) .

**

وعندما انعطفت السيارة بطيئة في طريق العودة إلى المنزل ، رأت العمة على رصيف الشارع فتاة شقراء تتأرجح من السكر ، اعتمرت

قبعة قرمزية بشرائط تتطاير في الريح ، توقفت هنيهة ثم قفزت مسرعة إلى داخل سيارة مرسيدس سوداء ذات سقف متحرك ، قبع في داخلها ثلاثة فتيان صغار يزعقون بأصواتهم الجهورية المراهقة من نافذة السيارة ، ويتبادلون الشتائم والسباب مع بضع عاهرات يقفن على الرصيف الآخر ويطلقن في الهواء أغاني إباحية .

ولدى شجرة عالية كانت هنالك ثلاث فتيات بتنانير قصيرة ضيقة ، وجوارب سوداء مخرمة ، توقفت على مقربة منهن سيارة سبورت ، هبط منها ثلاثة فتيان يرتدون معاطف ثمينة وآخر كان يرتدي قمصلة من الجلد بالغة الثراء ، وبعد مساومة قصيرة صعدت منهن اثنتان ، وانطلقت السيارة في الشارع لتجتاز السيارة التي كانت تقل العمة .

**

كانت الحوانيت مفتوحة أبوابها ، والمقاصف والمطاعم على جانبي الطريق تتصاعد منها أبخرة الشواء ، وتعلوها الأضواء الملونة التي تتوهج شاحبة في الظلام البارد المثلج ، بينما أخذ الرجال يدورون حول الأماكن التي تصدح منها موسيقى الصخب والضجيج ، ومن بعيد لمحت شخصاً يمسك بفتاة ترتدي سروالاً من الجينز وهو يشدها شداً ، كانت الفتاة تضحك بملء فمها وهي تقاومه حتى إن قميصها خرج من تحت حزام بنطالها ، وتدلى على أسفل عجيزتها .

كانت العمة تقاوم يأسها وهي تأمر الشوفير بالعودة إلى المنزل ، كانت تتلفت إلى الخلف وهي تحاول جاهدة أن تتفحص بين الأشجار وبين الأماكن المعتمة في الشارع ، وحين أصبحت السيارة على مقربة

من المنزل رأت الأضواء متوهجة في كل الأدوار ، وسمعت أصوات الكلاب تنبح في جوانب الحديقة المعتمة .

**

لم تجد العمة الفتاة تنتظرها تلك اللحظة في الصالة ، فرمت غطاء الرأس وصعدت السلم مرعوبة إلى الدور العلوي ، حيث كان سليمان واقفاً في الصحن ليخبر العمة أن الفتاة قد سقطت بعد أن شربت زيت الشعر المعطر ، من قنينة الغريب التي تركها وراءه في الحجرة ، فحملها مع الخادمين السودانيين إلى حجرتها .

هرعت العمة إلى الأعلى وقد أدركت أنها انتحرت ، دخلت الحجرة ، فوجدت الفتاة مسجاة على السرير وآثار تسمم حاد بادية على وجهها ، فقد بللها العرق ، وشفتاها ترتجفان ، أما وجهها فقد أصبح زائغاً ، بينما كانت مناديل اللعبة التي استعملت كمادات ما زالت مرمية هناك معصورة ومكومة على الكومدينو القريب من سريرها ، وكانت رائحة زيت الشعر المعطر تغطي المنزل بأكمله .

انتظرت العمة حتى الصباح أمام سرير الفتاة ، بعد أن استدعت الطبيب الذي قال إن صحتها سيئة ، وأن لا فائدة من علاجها فإنها تحتضر .

**

دقت الساعة العاشرة صباحاً . . كانت العمة في الصالة الدائرية تستريح قليلاً ، صعدت السلم ، توقفت قليلاً عند الصحن . . كانت الغرفة مليئة بجو جنائزي . . وعلى طبق الفضة الموضوع على الخوان الذي قبالتها زهرية ذابلة ومنديل أبيض مطرز بحرف صغير . . كانت

الفتاة محنية قليلاً . . وهي شاحبة شحوباً عاجياً . . وعيناها واسعتان مغرورقتان بالدموع . . تمتمت بصوت خفيض ، أدارت وجهها ببطء نحو النافذة . وحين رأت الستائر البنفسجية ارتعشت بحمى شديدة . . وأخذت رقبتها تتشنج ووجهها يحمر قليلاً . . ثم أعادت رأسها إلى الطنافس الحريرية المطرزة بورود ، وقد شحبت شحوباً شديداً . . ثم سالت دموعها غزيرة وهي تنظر نحو النافذة . اختنقت العمة بعبراتها ثم حولت نظراتها إلى النافذة ، نهضت من مكانها ، أزاحت الستائر ، ثم قالت :

- (. . لقد بحثت عنه ، كنت مستعدة لأن أفتديه بكل شيء وأن أتقبل منه كل شيء حتى الشفقة الجارحة ، ولكن أزيحي عن وجهك هذا اللوم والأسى) .

كان يخيل للعمة أن ابنة أخيها تمزق قلبها مكتئبة وهي تحدق في العتمة الرمادية الكابية ، فكانت تشتاق أن تموء مع قطتها على الأريكة .

شهقت الفتاة وأخذ صوتها يلهث ، فاختنقت العمة بعبراتها إلا أنها غالبت بكاءها أمام ابنة أخيها ، وأخذت ترتب الشراشف والستائر ، ثم أخذت تهبط الصالة وتصعد منها النهار كله ، وفي المساء أخذت الفتاة تتنفس بصعوبة وهي محلولة الشعر ، تنظر بحدقات جامدة بوجه عمتها ثم تحول نظراتها إلى يديها البيضاوين لتحدق فيهما طويلاً . .

- (حلم) . . قالت في نفسها . . (ربما الحياة في النهاية حلم ونحن نستيقظ لحظة الموت . . ما هي الحياة؟ ما هو الموت؟ . . ما الفرق

بينهما؟ . . أن تموت هذا يعني أننا نستيقظ . . كم كنت مخدوعة . . الحياة خدعة كبيرة . . يا لي من حمقاء . . الحقيقة الوحيدة هي الموت . . الموت وحده الحقيقي على الأرض . . كم أحسد الذين يستيقظون مبكراً . .) ألقت الفتاة برأسها إلى وراء . أغمضت عينيها . . حاولت العمة أن تتماسك وهي تحبس دموعها . . ففتحت الفتاة عينيها والعمة تجفف العرق المتصبب على جبينها بمنديل أبيض تضوع منه رائحة التفاح .

نهضت العمة من مكانها وحملت الفتاة على ذراعيها . . كانت السماء بيضاء بياضاً رهيباً ، والأرض كانت كالجرانيت باردة ميتة ، ولا شيء يأتلق في الحديقة غير الكلاب السلوقية المطلقة من حظائرها وقد أخذت تعوي عواءً حاداً مرتجفاً .

ثم أعادت العمة الفتاة إلى مكانها بعد أن تعبت وأغمضت عينيها . وهرعت إلى الشوفير وأمرته باستقدام حفار قبور ، وبعد أن حددت مكن القبر وقياسه قرب أضرحة العائلة المرمرية ، جاءها الشوفير بحفاري قبور وسيمين ، كانا يرتديان ملابس غير مرتبة وأحذية محلولة يعتليها الطين ، كانا وسيمين إلا أن وسامتهما شريرة ، ولهما مظهر مرعب ، يحمل الأول رفشاً والآخر معولاً وهما يبسمان ببلاهة أمام العمة ، قال الأول :

– (أين الميتة؟ . .) بينما أخذ الثاني يتحسس الأرض بأقدامه باحثاً عن بقعة هشة في التراب .

– (كونا رحيمين بها . . هل أنتما أصحاب خبرة؟ . .) .

– (بالتأكيد . .) قال الذي يتحسس الأرض بقدميه . .

ذهبت العمة لترتقي السلم بسرعة حتى وصلت إلى الحجرة المضاءة بالشموع . . تحركت قليلاً أمام النافذة بعد أن نظرت إلى الفتاة وقد بردت برودةً رخامية على السرير المبلل بالعرق البارد ، أخذت كرسياً لتتطلع إلى الحديقة الباردة المثلجة بعيون ثابتة ، وليس هناك سوى حفارين شابين في الحديقة يحملان معولاً ورفشاً ويتخاصمان حول الأجرة . . وهنالك كلاب سلوقية مطلقة من حظائرها تعوي عواء حاداً ومرتجفاً . .



خزانة الصور

لقد أعدت صورة عمتي بهدوء كبير إلى الخزانة ، أعدت صورتها إلى علبة مغطاة بساتان ناعم مخرم ومطرز بشكل جميل ، وأغلقت باب الخزانة الثقيل المصنوع من خشب الساج المطعم بالعاج إلى مكانه ، فشعرت في تلك اللحظة بهبوط شيء هادىء وغامض في نفسي ، شعرت بنوع من الإشراقة الختامية التي لم أكن أعرف معناها من قبل ، ولا دلالتها ، إنما أحسستها وهي تمثل أمامي بكل تفاصيلها ، أحسستها وقد عادت إلي كلها ، كلها تقريبا ، وهي تنبثق من تلك العتمة التي تكتسح دهليزاً بعيداً وقصياً ، عادت إلي كما لو كانت العمة وقد بدأت تجاوب صدى ذكرياتي :

رنة الملعقة على الصحن ، صوت البلاطة المخلخلة في العلية ، صوتها القديم العذب القادم من مكان قصي ، وحين تنبهت على نفسي كان الشعور الغامض والملغز ، وهو الشعور الوحيد الذي داهمني في تلك اللحظة ، هو ما قادتني إليه تلك الخزانة الجامدة من حركة أشبه بالومضة ، وحياة كاملة تقريباً ، وتبدل فصول طويلة وتعاقبها ، وهناك وفي المنزل الذي يشبه خزانة الذكريات والصور : ورق

الأشجار ، وأزهار الحدائق الغابية المخضلة ، وذكريات نتفحصها كما لو كنا نتفحص ظلاً في العتمة .

كنت أتساءل في تلك اللحظة ، عن هذا السر العظيم الذي جعلني أتأمل هذا الغياب بذهول وحب نادرين ، وأنا أنقذف بعيداً في ماض بعيد وناء وبمشاعر خالصة ومتناقضة وحيية أحياناً ، كنت أقول : للذكرى تحملني هذه الصورة الساكنة إلى عالم قد تهاوى كلياً تقريباً ، وللحب - ربما - كنت استحضر هذا الغياب الذي ينتشر أمامها . وقد كنت في تلك اللحظة كما لو كنت في بيت الأحلام ، في المكان غير المسكون والخالد معاً ، وأنا أتمسك بهذه الصورة ، وبالوشوشة شبه المتكلمة ، وأنحدر إلى عالم كامل ، عالم ناء وبعيد ، لكنه عالم يحمل كل قوته معه ، كنت أرفع الستارة لقاء ذكرى بسيطة ، ذكرى كائنة تحت ستار كبير مرفوع ، بينما العشبة اليابسة في كينونتها تبقى غائبة ومعدنية ، والضوء الذي يجمدها هو الذي يجعلها خالدة وأبدية .

كنت أشعر بأن هذا العالم لا تتكامل حركته إلا بالصورة ، عالم خالد وأبدي ويفتقر إلى أية وحدة ، ولكنه لا يكتسب معناه حقيقة إلا حينما نجمده في الصورة التي نتأملها ، دون أن ندرك بأننا نتأمل أنفسنا ، دون أن ندرك بأن ظلالنا التي نلقيها هناك سنعثر عليها هنا ، مثل هذه المصابيح التي تومض في الضباب الخانق ، وقد هيمنت على كل مكان في الشارع الصغير الملتوي ، وفي تلك اللحظة انبثقت صورة العمة وهي تجلس على طاولة مزينة بمفرش أبيض مخرم عند حافاته ، تجلس وهي ملتهبة بالحب ، وبالتحول الأسطوري للأشياء التي تلمسها .

كنت أتذكر في تلك اللحظة صورة أخرى ، صورة كنت رأيتها للمرة الأولى في لندن ، في شارع ويست منستر تحديداً ، في محل صغير تديره مصورة شابة ، يعرض في الواجهة الزجاجية صورة لعمتي بقصة شعرها القصيرة ، وأنفها المرفوع للأعلى ، وابتسامتها الحزينة الذائبة ، كنت أشعر وبقوة بهذه الرغبة العظيمة للحياة وهي تنبجس من هذا الإطار الجامد الذي لا حياة فيه ، وعندها أدرك بأن التغيير الجذري للكلام ، لا يكون إلا حينما تتكلم الصورة ، أدرك بأن كل أحلامنا وخيالاتنا سوف تنتهي إلى هذه الواقعية الشديدة البديهية ، وستكون الصورة هي الفرصة النادرة التي تعوض المكان حين ينفصل عن الأشياء التي تحيط به ، وستكون الصورة هي الشاهد الوحيد على تنوع الوجود وتغييره الفظيعين ، وما سيكنس الكلام بعيداً ، هي تلك الصورة الصغيرة والمهملة ، وذلك باختصارها الكبير للزمان والأفكار والحياة . . لقد وقفت هناك ، في ضباب الشارع ، وأنا أتطلع إلى صورة عمتي ، ألملم معطفي الثقيل حولي ، وأحدق في وجهها ، فأرى في تلك اللحظة بالذات سر حياتها الأخير وصمتها ، أرى مذكرات شتائها التي راحت من يديها ، والقوة التائهة التي اختلست منها هدوء الليل ، وهي تبكي .

**

جلست هناك ، على كرسي الخيزران الذي كانت تجلس عليه عمتي يوماً ما ، وأنا أصغي إلى صوت المطر وهو يسقط على عارضة الشباك مدفوعاً بميل لا يقهر ، كنت أصغي لصوت المطر وهو يسقط على العنابر الألمنيومية المتموجة البعيدة ، وهي تحدث صوتاً متواصلاً ،

وكانت رشقات المطر تجيش وتهدأ ، تجيش وتهدأ ، وأوراق الأشجار المتساقطة تهوي بألوانها المتعددة الملونة بانزلاق ناعم ، تهوي وتتكوم على طول الجدار العالي الذي يحيط بالشارع الخارجي المطوب باللونين الأحمر والأصفر ، ومن بعيد ، من النافذة العالية للمنزل الذي ولدت فيه ، كنت أنظر إلى الشوارع المتقاطعة وقد ابتلت بالماء ، أنظر إلى اليابسة التي تنحدر إلى النهر وقد كانت خالية وموحشة ، أنظر إلى المنازل البيض وقد كانت أنيقة تغطي واجهاتها القرميدية أغصان الشجر .

(صور . . ذكريات) قال إبراهيم وهو يعدل نظارته على أنفه ، قال ذلك وهو يستوقفني بعاطفة كاسحة ، وكان صليل المطر الذي يتساقط على العنابر الألمنيومية وعارضة الشباك ، وعلى مرمر العلية يزعجه ، وقبل أن يذهب مباشرة ليغلق الشباك قال :

- (لم يعد في المنزل الذي تركناه غير الصور والذكريات) .

لقد ذكرته بعمتي ، ذكرته بما قالته لنا يوماً ونحن نجلس في المكان ذاته :

- (كلكم تسافرون فمن يعتني بخزانة الصور ، بضريح الذكريات) وقد ضربت الخزانة المصنوعة من الساج الهندي بقدمها ضربات متوالية ، دون أن يدري أي واحد منا أن هذا المنزل الذي تركناه يتحدد في إطار جغرافي محصور ، يتحدد في لحظة تاريخية تعبر عن انهيار عائلة بأكملها ، يعبر عن دسائس محبوكة بمهارة ، وانهيار العمة يعبر بشكل كامل عن تأريخ الخديعة ، خديعتنا كلنا ، هم يتحدثون عن سقوط العائلة وانهيارها وأنا أتحدث عن الذكرى ، الذكرى الخالصة

بإلحاح مدهش ، لا عن الغش والانهيار الفظيعين ، اللذين ما زالا أكثر إظلاماً على الرغم من المصابيح الصافية والنهار الذي يصر على إرسال ندائه من بعيد .

حين أنظر من زجاج النافذة أكاد أغفو على المنظر الذي يقدم نفسه بسخاء كامل ، أكاد أغفو على المنظر الذي يبرز مضبباً خلف غلالة المطر ، ويقدم نفسه بحنان كبير ، بينما كان صوت إبراهيم يستطيل ويختفي في ذهني : (ما الذي نتذكره من هذا المنزل . . لقد ماتت العمة ومات كل شيء) .

ومثل إشراقة النهار ، أو مثل نافورة ملونة يتفجر في ذاكرتي تلك اللحظة ، وبشكل فوري وسريع ، جب الزنبق في الحديقة السلطانية الكبيرة ، أتذكر ماء المطر وهو يسيل في المروج ، أتذكره وهو يسيل في الحديقة ، الأوراق المخملية وقد امتدت تموجاتها ، كانت تطول وتهدأ ، كانت تتموج . . تتموج وتستكين ، فيختفي صوت إبراهيم ويظهر بدلاً منه صوت عمتي بحشرجته الخفيفة وتنغيم صوتها الرخيم وهي تقول :

- (من يعتني بشلال الصور والذكريات . . كلكم تسافرون . . كلكم تهربون) .

طوال الليل وأنا أتذكر المنزل الذي ولدت فيه ، طوال الليل وأنا أتذكر صوت الأرانب التي تصطدم بالعلية ، كنت أتذكر صورة الفراشات الرقيقة وهي ترفرف بأجنحتها الملونة على برميل الزبالة ، أتذكر مرور لقلق أبيض فوق المنزل ، مرور لقلق بهدوء وصمت عجيبين ، ثم توقفه البطيء على العلية بساق واحدة ، كنت أسمع

صرير الباب الدوار في الأعلى ، كنت أشعر بصعودنا في الظلام وأنا أرتجف من عواء الكلاب ، ونباحها المتتابع . عمتي تضحك مني وتقول :

- (أنت تخاف من الكلاب . . هذه كلاب جدك) .

كنت أصغي في الليل لرنين صوت أجراس البغل الذي يمر في الشارع ، أصغي للهواء الذي يعصف ، وللصمت الذي يسود المكان ، وهو يخيفني . كان صوت عمتي الناعم وهي تقول : (كلكم تسافرون فمن يعتني بخزانة الصور بضريح الذكريات هذا) يختلط مع صوت إبراهيم وهو يقول : (سنبيع المنزل . . من يعتني به . . ماذا تفعلون بهذه الأحجار والذكريات) .

**

حين عدت في الشتاء الماضي إلى المنزل الذي ولدت فيه ، نظرت إلى الطريق الموحل الذي يربط النهر بباذرة القرنفل ، ويربط خاصرة الماء بمفازة الآس ، وهناك عقود من الورد الملون وهي تتجمع بكثافة على البرك العذبة الصافية التي تنعكس عليها صورة حجر القناطر ، وتحت الأجمات الضخمة وتحت ظلالها ، كان الأقرباء يجلسون على طاولة قديمة ومحززة على كراسيّ من القش ، وهم يغمسون قطع الكعك في استكانات الشاي ، كانوا يتحدثون عن بيع المنزل ، فأتذكر المصورة الشابة في لندن التي تعرض صورة عمتي في الواجهة الزجاجية ، كانت صغيرة الحجم ، وتقاطيع وجهها عذبة ، ناعمة ووسيمة ، فبعد أن أعبر قنطرة الجسر المختنقة بالضباب أنعطف عليها ، أمر من الأشجار التي تختفي في البياض الشفيف ، وأنا أسير بهدوء ، بهدوء تام ، وقد

خبأت يدي في جيبي معطفي من البرد ، وقد وضعت السيجارة في فمي ، أسحب الدخان منها وأطلقه دون أن ألمس السيجارة بيدي ، كل يوم كنت أقف أمام أستوديو التصوير الذي يحتفظ بصورة للشرقية التي زارت لندن في الخمسينيات والتقطت صاحبة المحل الأيرلندية صورة لها ، ثم سجنت الصورة في إطار مذهب جميل ، سجنت الصورة الفوتوغرافية وعرضتها في واجهة المحل الزجاجية .

كل يوم كنت أقف أمام المحل وأنا أتوسل إلى ابنتها :

- (هل تبيعين الصورة . . إنها صورة عمتي) .

- (لا آسفة هذه الصورة كانت تحبها والدتي . . وعرضتها في الواجهة . . إنها تذكرني بها) .

- (سنبيع المنزل . . سنبيع المنزل) .

كنت أتوسل :

- (لا تبيعوا المنزل لم يبق لنا من المنزل الذي ولدنا فيه غير صور العمة وذكرياتها) .

كنت أقول لابنة صاحبة الأستوديو :

- (هل تبيعين الصورة) .

تقول :

- (لا . . لا أستطيع إنها تذكرني بأمي) .

وأنا أقول :

- (لا . . لا تبيعوا المنزل إنه يذكرني بعمتي) .

ولكني في الوقت ذاته أتوسل إلى الإيرلندية بنت صاحبة الأستوديو :

- (بيعي لي هذه الصور . . سأعطيك ما تشائين) .

وهم يصرخون بوجهي :

- (ستربح الكثير . . وافق على بيع المنزل . . ماذا تفعل بالصورة؟) .

**

أمام هذه القطع الصغيرة التي تتجمع في خزانة صغيرة واحدة ، كنت أشعر بهذا التسلط الجلي للصورة ، كنت أشعر بهذا الوضوح والتماسك للصورة التي لا تكشف لنا إلا عن ذكرياتنا ويأسنا ، وفي الوقت ذاته كنت أشعر بأن الصورة التي تجمدنا في لحظة لا تكشف لنا إلا عن وهم من أوهامنا ، هناك . . كل شيء كان يحفزني إلى الذكريات وتسلطها الهادىء والناعم في نفسي ، كل شيء كان يحفزني للنظر من النافذة إلى العالم الذي يتلاشى أمامي ، العالم الحاضر الذي يغيب ، والعالم الغائب الذي يحضر مكانه ، بينما كانت الساعة الكبيرة المزخرفة الموضوعة أمامي على الجدار المطلي ، تذكرني بوجودي الحاضر ، كان صوت تكتكاتها يذكرني بأنيتي ، ويذكرني بعبث استعادة الذكريات ، كان صوت المطر الذي يخشخش فوق العنابر ، يذكرني وهو يتلاشى تماماً بأن كل شيء سيتلاشى مع الزمان : ويتحول إلى أحلام مستعادة ، وذكريات بعيدة ، وصور تنجو من التغير والتحول الفظيعين ، يمر من أمامي استعراض طويل للصور وهو يتحرك على مدى أشعة الضوء الموحشة ، وكان رقاص الساعة يدق ، ليذكرني بأنيتي وبوجودي الحاضر ، ومع ذلك يأخذني بعيداً لأتذكر صوت حذاء عمتي وهو يخط على الأرضية .

وقف إبراهيم لدى الباب وهو يرتدي معطفه ، كان يضع نظارته الطبية على أنفه بخفة ، ويعاين المكان : (لقد تأخرت . . تأخرت كثيراً . . متى جئت من لندن؟ المنزل الذي تركناه قد تهدم . . ولم يعد من وقت لك لتهرول) .

كان الجدار العالي قد تهدم تماماً ، انغلق الباب وابتعدت ، ثم تقدمت ، سمعت صوت حذاء عمتي وهو يخط على الأرضية . كانت هنالك أوراق الأشجار الميتة وهي تتكوم عند السياج بألوانها الليمونية والحمراء ، ومن زاوية الحديقة السلطانية الكبيرة كنت أشم رائحة القهوة وهي تنبعث من المكان الذي جلس فيه سليمان ، ولدى العصر رأيته لابساً قميصاً وياقة ، وكان الكل يجلس في الحديقة السلطانية حلقة ، كانوا جالسين هناك تحت ظلال السدر المعمر على مقربة من جب الزنبق الذي قضيت طفولتي وأنا ألعب على مقربة منه ، وعلى مقربة من شجرة الدراق حيث كانت عمتي تقف وهي ترتدي حذاءها المصنوع من جلد الغزال ، كانوا جالسين وهم يضحكون ، مع ذلك قالوا لي :

- (لقد تأخرت . . تأخرت) .

لم أكلمهم إنما بقيت أسير في المماشي المشمسة الفسيحة ، وقد هبط عصفور صغير على الأرضية المزروعة بالثيل الأخضر الداكن ، كانت عيونه المستديرة تتحرك بصمت ، وهو ينقر الحب في الصحن ، رحت أرقب الأشجار وأنا أصغي إلى الكلاب السلوقية التي تتحرك في الحظائر ، وكنت أسمع في داخلي أصواتاً أخرى لا تكف عن البكاء ، أصواتاً تنبعث من دهليز مظلم وموحش في نفسي ، دون أن

تكون لي القدرة على تحديدها .

قال الجميع : (نبيع المنزل . . نحن سافرنا وما عدنا نريد العيش فيه) .

قال إبراهيم : (أنت أيضاً هربت . . هربت . . هربت . .) .

**

دخلت المنزل ، مثل أي غريب هذه المرة ، كان قد استباحه الغرباء بالمرة ، كانوا يتجمعون في كل مكان منه ، فأشعر بقلبي وهو ينقبض بقوة ، كان هنالك بضعة أشخاص يتفحصون الأثاث ، وهنالك امرأة تتأكد من الصور المعلقة على الجدار ، وسألت فيما إذا كانت هذه الصورة التي رسمها جواد سليم أصلية أم لا . هنالك لوحة أخرى اشتراها عمي منيب من متحف في لندن ، طلبت أوراقها ، كانت تتفحصها كما لو كانت تملكها .

هنالك طاولة عريضة وقف عليها الدلال ، وأخذ يهيء نفسه للمزاد ، أخذ يفحص صوته جيداً ، ويسجل في دفتره أنواع السجاد وأثمانه ، الصناديق الخشبية القديمة ، الأرائك ، وأنواع الصحون الفرفوري ، والصحاف الفضة والنيكل ، ومجاميع الملاعق والسكاكين والشوكات التي كانت في المطبخ . وقف رجل على مقربة من الوجاق أولاً ، ثم جلس على الكرسي الخيزران ، ووضع أقدامه على الطابورية فشعرت بالضياع في تلك اللحظة ، لقد شعرت بأني ضائع تماماً ، ومحكوم علي بتلك العزلة والضعف والمرض والتعب ، كنت شعرت برغبة كبيرة أن أقول له :

- (هنا كنت أجلس في الليل وأبكي . . حين كنت طفلاً) .

أو أن أقول له مثلاً :

- (هنا كانت جدتي تجلس بعد العشاء وتتحدث لنا عن مدحت باشا وعن طبق العصيد) .

وعند ذاك سيقول لي :

- (ما تفكر به غير ما أفكر به) .

فهو لن يشعر بهذا الكرسي كما أشعر به ، فشعوره لن يتعدى شعور شخص يبحث عن كرسي يبادله بثمن ، وسيسأل إن كان هذا الكرسي كرسياً ثميناً أم كرسياً عادياً ، سيقول لي :

(هنالك العشرات منه معروضة للبيع ، ولن تساوي قيمته أكثر من قيمة الكراسي الأخرى التي لم يأكل عليها مدحت باشا طبق العصيد) .

سنكون حين ذلك في خطوط متقاطعة ، أنا أجد بهذا الكرسي ما يجعله أكثر من كرسي حتى لو كانت هنالك العشرات من الكراسي التي تشبهه ، وهو يجد به أقل من كرسي جديد ، ومن ثم ستكون قيمته إلى النصف سيقول لي :

- (اذهب أنت وكرسيك إلى الجحيم) .

وأنا سأقول له :

- (اذهب أنت ومالك إلى الجحيم) .

لن يكون هذا الكرسي أقل من عالم بأكمله ، ولن يعرف قيمته إلا من يقرأ خزانة الصور والذكريات بأكملها .

**

هبط ثلاثة عتالين وهم يحملون خزانة الصور ، وأنزلوها إلى

الصالة ، كانوا يسألون فيما إذا كان المزاد على الصور ودفاتر المذكرات أم الصندوق وحده .

كان الدلال يقول :

- (من يهتم اليوم بالصور والمذكرات . . إنها لا تساوي شيئاً . . نحن نهتم بالصندوق وسواء أكان مصنوعاً بالعشرينيات أم بالثلاثينيات أم بالخمسينيات أم بالثمانينيات فهو لن يكون أكثر من صندوق يستخدم لخزن الحاجيات وهناك الكثير منه . .) .

كنت أشعر بأني أعيش على الهامش ، على الهامش البسيط بالضبط ، إن من يبحث عن اللحظة الهاربة لن يستطيع مقاومة الفكرة الحقود التي تجعل منه يعيش دون أي شيء ، وعلى هامش كل شيء .

كنت أتساءل في نفسي :

- (من يستطيع التخلص من الفكرة المخفقة أو من قوة السكون العظيمة دون أن يجد هنالك ما هو ملزم لوجوده) .

إذن سأشعر كما شعرت العمة يوم التقيت بها بعد أعوام الفراق الطويلة :

شعور المريض المرتجف الذي يقف في عاطفة مهواة ، في رعب ، في خوف ، غير مستند إلى عقل ، في فراغ ، حيث ما من شيء يرغب ولا شيء يصيح أو يصرخ .

- (ما الذي يمكن أن تفعله لي خزانة الصور) قال إبراهيم .

- (كل العائلات تكذب بشأن تأريخها . . إنها أوهام . . أوهام لا غير) .

- (الناس لا تعيش حياتها فقط إنما تعيش أوهامها أيضاً . . نحن

نعيش أوهامنا ومن يستطيع التخلص من مصيره . . من يستطيع أن يحلم خارج نفسه . . ثم ألا نستطيع أن نعبر عن قلقنا بصوت منخفض . .؟) أنا قلت . كان إبراهيم يعقد ربطة عنقه ويندفع عبر الباب خارجاً ، صارخاً : (أوهام . . كلكم أوهام . . أوهام . .) .

ليس هنالك من مكان للمصالحة ؛ لقد اختصرنا نصيبنا من المأساة والعمة وحدها التي حاربت الموت الرمزي وغنت انتصارها بخجل . لقد كانت قصتها التي أعدت تفاصيلها بدقة متناهية عبر دفاتر ذكرياتها قصة مبهمة ، قصة عسيرة تقع في المسافة النصف بين أن تجد الجاد هازلاً ، والتخييلي مأساوياً ، ولا تكون وسط الفاجعة مشغولاً بمبالغات الحب على الإطلاق ، إنما بالعكس ، بالعكس تماماً ، تجد نفسك وقد أصبحت وسط الأحلام ، هذا المكان الذي نكون فيه منكشفين تماماً ، لقد دمرت عمتي حادثة حب بسيطة ولا أحد يشهد على هذا سوى خزانة الصور ، وليس هنالك من مكان أو مسرح متين سوى هذا المنزل الذي سيبيعونه :

- (هل تريد أن تتفرج على المنزل بوصفه مسرحاً لموت جوليت) .

ضحكوا مني كثيراً ؛ لقد سخروا كثيراً .

- (أنت أيضاً هربت . . هربت . . هربت) .

كانوا يستسلمون للمزاح وتحولت العمة إلى بطلة ديانة تافهة وفاجعة ، والمكان هو السجل الأكثر هزلية للنزاعات الوقحة والمنتحلة .

**

اتركوا الصور ودفاتر الذكريات ، قلت لهم :

لقد ماتت العمة بسبب قصة حب . لقد دخل غريب منزلنا وهدم

سلام العائلة إلى الأبد ، وحين زرتها في العام الماضي كنت أتعرف على نفسي في الأشياء المتهدمة ، في الأشياء الموضوعة بنعومة ، التي لا يعرف سرها أحد غيرنا . كنت أتعرف على نفسي في الأشياء ، وتأريخ الأشياء ، وهذه الحديقة السلطانية التي تتحدث لم يعد فيها من شيء صالح للقطاف ، كانت العمة تتراءى لي مثل بخار يتصاعد من صور الطفولة ، من صور العائلة التي تحتك وتمتزج في شفافية رخوة ورطبة ، كل شيء في الذكريات يستدق ، يستدق حتى يصل إلى الفخفخة ، إلى ذروة الترف والفخفخة ، وكنت أتعرف على معنى الأشياء الزائلة والحاضرة بسرها وإسرافها الجميل ، كنت أتعرف على ما هو زائل وكئيب ، في بعض أيام حزيران ، حتى وصلتني رسالة من إبراهيم تقول :

– (تعال . . فقد عرضنا المنزل الكبير للبيع . .) .

– انتهت –

ملاحظة :

كتبت هذه الرواية في العام ١٩٩٣ ، وحازت على جائزة المبدعين الشباب في مجال الرواية في دبي ، الإمارات العربية المتحدة ، في العام ٢٠٠١ .

علي بدر
روائي عراقي

صدر له

* بابا سارتر ، رياض الريس ٢٠٠١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ ط٢ بيروت ٢٠٠٦ .
– جائزة الدولة للآداب في بغداد .
– جائزة أبو القاسم الشابي في تونس .
* شتاء العائلة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠٠٢ . المؤسسة العربية والدراسات والنشر/ ط٢ بيروت ٢٠٠٧ .
– جائزة الإبداع الروائي في الإمارات .
* صخب ونساء وكاتب مغمور ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٥/ ط٢ ٢٠٠٧ .
– منحة من مؤسسة الكوندور الثقافية .
* الوليمة العارية ، دار الجمل ، كولونيا ، ٢٠٠٥ .
* الطريق إلى تل المطران ، دار رياض الريس ، بيروت ٢٠٠٥ .
* خرائط منتصف الليل ، رحلات ، أبو ظبي ٢٠٠٦ .
– جائزة ابن بطوطة للرحلات في أبو ظبي .
* ماسنيون في بغداد ، دراسة ، دار الجمل ، كولونيا ، ٢٠٠٥ .
– شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس .
* مصابيح أورشليم ، رواية عن إدوارد سعيد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٧ .

THE FAMILY'S WINTER

رواية
NOVEL

شتاء العائلة



تصوّر هذه الرواية تهدّم وانهيار الطبقة الأرستقراطيّة البغداديّة في الستّينات والسبعينات بعد اندلاع الثورة، وذلك عن طريق قصّة حبّ سيّدة في الأربعين من عائلة ترتبط بالبلاط الملكيّ المنهار، فترفض الانخراط في الحياة الجديدة، وتعتزل في قصرها المشيّد على نهر دجلة مع خادمها الفارسيّ وابنة أخيها الشابّة؛ وتقطع كلّ علاقة لها مع الخارج باستثناء ذكرياتها القديمة والجلوس عند قبور أفراد عائلتها الذين قتلتهم الثورة، وفي يوم ماطر يدخل شابّ إلى القصر مدّعيًا قرابته للعائلة وأنّه جاء من الخارج بصحبة زوجته لقضاء شهر العسل، وبالرغم من شكوك السيّدة به، فإنّها تسمح له بالعيش معهنّ في القصر، حيث يبدأ الشابّ بتدمير حياة هذه السيّدة وابنة أخيها عن طريق اختراع قصص حبّ مزيّفة معهما تدفعهما إلى التنافس عليه؛ ثمّ يحدث خطأ غير مقصود يؤدّي إلى هربه من القصر فتنهار حياة العائلة وتتقهقر.

إنّها رواية تؤرّخ للطبقة الأرستقراطيّة في العراق، ولمعجمها الّذي يتكوّن من ديكورات، وأثاث، وممتلكات، وغير ذلك.

علي بدر

روائيّ عراقيّ حازت روايته الأولى (بابا سارتر) على العديد من الجوائز، وقد ترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبيّة.


ISBN 978-9953-36-988-7
9 789953 369884


المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
http://www.airpbooks.com